@Tafsircenter

آدم فلاورز
Adam Flowers

إعادة النظر في النوع الأدبي للقرآن

ترجمة: أمنية أبو بكر

www.tafsir.net

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

نبذة تعريفية بآدم فلاورز:

آدم فلاورز، باحث دكتوراه بجامعة شيكاغو متخصّص في تاريخ القرآن، تتركّز اهتماماته في دراسات الخطاب القرآني وأنواعه، وتاريخ الإسلام المبكّر، وتاريخ القرآن وجمعه. له عدد من المقالات العلميّة في هذا السياق.

مقدمة[1]:

في إطار تطوّر الدراسات الأدبية في السياق الغربي، والاستفادة التي حقّقها الباحثون في مجال دراسات الكتاب المقدّس باستخدامها، اتّجه كثير من الباحثين لمحاولة الاستفادة من هذه المناهج في دراسة القرآن.

في هذه الدراسة التي بين أيدينا يحاول آدم فلاورز الباحث المتخصّص في جامعة شيكاغو، الاستفادة من المنجزات الحاصلة في النظرية الأدبية حول الأنواع الأدبية لوضع إطارٍ منهجي لدراسة النوع الأدبي للقرآن.

وينطلق فلاورز بالأساس من غياب مثل هذا الإطار المنهجي عن الدرس الاستشراقي رغم بحثه في الوحدات الأدبية للقرآن، مما يجعل تناول الأنواع الأدبيّة في القرآن في هذا الدرس مشوبًا بعدم الدّقة المنهجية والتي تظهر في الاختلاف حول محددات (النوع)، ومشوبًا كذلك بالاشتغال الجزئي المقتصر على بعض نطاقات النصّ القرآني، مما يقف حجر عثرة أمام إمكان اكتشاف الأنواع الأدبية داخل القرآن؛ مقاطعَ وسورًا ومدونة كاملة.

---

(١) قام بكتابة المقدمة، وكذا التعريف بالأعلام وكتابة الحواشي والتعليقات الواردة في نصّ الترجمة، مسؤولو قسم الترجمات في موقع مركز تفسير للدراسات القرآنية، وقد ميزنا حواشينا عن حواشي فلاورز بأن نصصنا بعدها بـ(قسم الترجمات)، وقد كانت حواشي المؤلف موضوعة في نهاية الدراسة، لكننا آثرنا تضمينها داخل الملف تيسيرًا على القارئ في تتبع مراد المؤلف.

كما يكشف اشتغال فلاورز عن العلاقة بين دراسة النوع الأدبي للقرآن ودراسة الترتيب الزمني له، سواء ما يمكن اعتباره جمعًا بينها في الكتابات الكلاسيكية؛ مثل كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه، أو ما يَعِدُ به تفعيل إطارٍ منهجي لدراسة النوع الأدبي للقرآن من اكتشاف الصلة بين الأنواع الأدبية للقرآن وتاريخه، مما يتيح فهمًا أكبر لكلٍّ من: تاريخ النصّ، وأنواعه، وتطورها، وسياقات استعمالها.

ولا يتوقف فلاورز عند حدّ وضعِ إطارٍ نظري منهجي للعمل على دراسة النوع القرآني يستفيد فيه من نولدكه وكذا من المنجزات في دراسة النوع الأدبي مع باختين وميلر، ولكنه يقدِّم مثالًا تطبيقيًّا لطرحه عبر الاشتغال على سورة آل عمران، محاولًا تحديد الأنواع الكلامية فيها والتي تمثّل الوحدة الأدبية الدُّنيا للقرآن والأنواع الأدبية الأولية والثانوية التي تنظم هذه الأنواع الكلامية.

إنّ أهم ما في دراسة فلاورز ليس نتائجها، بل كونها تمثِّل نموذجًا تطبيقيًّا لتفعيل الدرس الغربي المعاصر (المناهج الأدبية) على النصّ، مما يجعلها اكتشافًا لآفاقها وحدودها، وكذلك كونها تمثّل إيضاحًا للشكلِ الجديد الذي اتخذه البحث في قضية ترتيب القرآن عبر انفتاحه على المناهج الأدبية.

الدراسة[1]

مقدمة:

بالنسبة إلى الخصائص الأدبية للقرآن، قد يكون التنوّع الأسلوبي هو أكثرها تميّزًا؛ إذ يظهر فيما بين السور تفاوتٌ شاسعٌ في طول الآيات والقافية وتركيب الجُمَل والمصطلحات وموضوعات الخطاب. وقد سعى الباحثون الغربيون لأكثر من قرن إلى تصنيف أنماط الخطاب القرآني، وفَهْم كيفية اشتغالها مع بعضها بعضًا، مكوِّنةً نصًّا أدبيًّا هو القرآن. وعلى الرغم من وجود كتابات تشير إلى النوع الأدبي للقرآن، إلّا أن هذه الكتابات عادة ما جاءت ضمن دراسات تقديمية، كما جُرِّدَت من أيّ إطار منهجي صارم. ويمثّل هذا البحث محاولة أُولى لصوغ إطار أدبي لمقاربة النوع الأدبي للقرآن؛ فيعمد أولًا إلى تقييم حالة النقد النوعي للقرآن في الدرس الغربي، موضحًا الحاجَة إلى إنشاء إطار أدبي من أجل تناول النوع الأدبي في القرآن، والذي يصمم ليتماشى مع الخصائص الأدبية لنصّ القرآن.

ثم ينصرف البحث -استنادًا إلى نظرية النوع الأدبي- إلى إنشاء إطار للبحث، يقترح أنّ الأنواع الأدبية المفردة للقرآن توجد على هيئة وحدات أدبية

(١) ترجم هذه المادة: أمنية أبو بكر، مترجمة، لها عدد من المقالات والدراسات المترجمة المنشورة على عدد من المواقع.

موضوعاتية وقواعدية محددة. أخيرًا، سيُقْتَرَح نهج أدبي جديد لدراسة النوع الأدبي للقرآن، مستخدمًا تحليلًا بنيويًّا موضوعاتيًّا وقواعديًّا مقارنًا للكشف عن **كلام القرآن**، والصيغ الأصلية للوحي، وبالتالي صيغ الأنواع الأدبية الأصلية التي تواصل بها النبي مع المستمعين إليه في هذا الوقت. عند تطبيق هذا الإطار على سورة آل عمران، تتكشّف تسعة أنواعٍ أدبية مميزة.

إنّ فهمًا أكثر دقّة للنوع الأدبي للقرآن ينتج عنه أمران: إدراكٌ أكبر للقرآن كنصّ أدبي، ومنهجٌ جديد لبحث أدبي حول الشواغل الناشئة في المجتمع المسلم المبكّر، ومعتقداته، وممارساته. ويظلّ النوعُ الأدبي أحدَ الملامح الأدبية للقرآن التي لم تحظَ بالاهتمام الدراسي الكافي، ومع ذلك فبالكاد يمكن المغالاة في تقدير الفائدة المحصلة من قراءة نقد-نوعية للقرآن.

وطالما صَعُبَ على المتلقي الغربي إدراك البنية الأدبية للقرآن، حتى إن نيل روبنسون[١] قد استعار عبارة: «الفوضى السردية»[٢] عند وصفه ملاحظة

---

(١) نيل روبنسون (١٩٤٨-)، أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة ليدز، من أشهر أعلام الاتجاه السانكروني (التزامني) في قراءة القرآن، ومن أشهر كتبه في هذا السياق كتاب: «اكتشاف القرآن؛ قراءة معاصرة لنصّ مقنع، ١٩٩٦»، والذي درس فيه تركيب عدد من السور القرآنية المكية والمدنية، كما حاول فيه التأسيس نظريًّا لفكرة القراءة التزامنية للنصّ والحجاج حولها، وقد ترجمنا له على قسم الترجمات، ضمن الملف الثالث (ملف الاتجاه السانكروني) دراسة بعنوان: «بنية وتفسير سورة المؤمنون»، ترجمة: أمنية أبو بكر. (قسم الترجمات).

(٢) Robinson, Discovering the Qur'an.

البنية الأدبية للقرآن لدى قارئه لأول مرة. لكن ما الظواهر الأدبية الباعثة على هذا التوصيف؟ وهل يقع القرآن وسوره خارج إطار التصنيف النوعي المتوقع بالنسبة إلى الدرس الغربي أو المألوف لديه[١]؟ إنّ هدفًا جوهريًّا لتحليلٍ نقديّ للنوع الأدبي للقرآن هو إدراك الطريقة التي يحضر بها القرآن -بصفته قطعة أدبية مفردة- كتفاعل معقّد بين صور الأنواع الأدبية، سواء من خلال سوره، أو الأنماط النوعية الأصغر المكونة تلك السور، أو حتى الإضافات اللاحقة المضمنة في النصّ[٢].

كذلك يمكن لتحليل النقد النوعي للقرآن أن يكون عظيم الفائدة في دراسة التاريخ النصّي للقرآن، وكذلك تاريخ أقدم مجتمع مسلم. فإعادة ترتيب الوحي القرآني ترتيبًا كرونولوجيًّا أصبحت مسعى للدرس الغربي، بداية بأعمال غوستاف فايل[١][٣] وصولًا إلى (تاريخ القرآن) لتيودور نولدكه (١٨٦٠)[٢]،

(١) تجب الإشارة هاهنا إلى أن التحليلات المهتمة بالنوع/ الأنواع الأدبية للقرآن مشهودة بالفعل في المرحلة ما قبل الحداثية للإسلام -ولكنها ليست (نقد-نوعية) بدقة-. راجع: (God is Beautiful، لنويد كرماني) من أجل نظرة عامة موجزة.

(٢) لتوضيح فائدة الدراسات المقامة على الأنواع القرآنية المفردة راجع، "'The Mysterious Letters" لديفن ج. ستيوارت، وWansbrough, Bultmann, and the Theory of Variant Traditions'. لديفن ج. ستيوارت.

(٣) Weil, Historisch-Kritische Einleitung.

حيث نُظِرَ فيهما إلى الروايات الإسلامية التقليدية للوحي القرآني جنبًا إلى جنبٍ مع تحليلٍ للسمات الأدبية للقرآن. وقد ساعدت تلك السمات المتنوعة بين طول الآية والقافية والمصطلحات نولدكه(٣) وخَلَفَه من الباحثين أن يبلوروا

=

(١) جوستاف فايل (١٨٠٨-١٨٨٩)، مستشرق ألماني، ولد لأسرة يهودية، وكان جدّه الحاخام الأكبر للمجمع الإسرائيلي، درس في صغره اللغة الفرنسية والعبرية وتعلّم في المدرسة التلمودية، دخل جامعة هيدلبرج لدراسة اللاهوت، لكن لاحقًا تركها لدراسة الفيلولوجي والدراسات التاريخية، ثم انتقل إلى باريس لإكمال دراساته الشرقية، كما سافر إلى الجزائر ومصر وتركيا، وواصل دراسة اللغات العربية والتركية والفارسية، عيّن كأستاذ مساعد للغات الشرقية في جامعة هديلبرج عام ١٨٤٥ ثم كأستاذ كرسي اللغات الشرقية عام ١٨٦١، وقد ترجم عددًا من الكتب في التراث الإسلامي، مثل؛ «أطواق الذهب للزمخشري، شتوتجرت، ١٨٣٦»، و«ألف ليلة وليلة، شتوتجرت، ١٨٣٧-١٨٤١»، و«سيرة ابن هشام، ١٨٦٤»، وله عدد من الكتب؛ أهمها: «النبي محمد، حياته ومذهبه، شتوتجرت، ١٨٤٣»، و«مقدمة تاريخية نقدية إلى القرآن، ١٨٤٤»، و«موجز تاريخ شعوب الإسلام، شتوتجرت، من عصر النبي حتى السلطان سليم الأول، ١٨٦٦». (قسم الترجمات).

(٢) Nöldeke and Schwally, Geschichte.

(٣) تيودور نولدكه (١٨٣٦-١٩٣٠)، شيخ المستشرقين الألمان كما يصفه عبد الرحمن بدوي، درس عددًا من اللغات السامية: العربية، والعبرية، والسيريانية، وآرامية الكتاب المقدّس، ثم درس -وهو طالب في الجامعة- الفارسية والتركية، وفي العشرين من عمره حصل على الدكتوراه عن دراسته حول «تاريخ القرآن»، وهي الدراسة التي قضى عمره في تطويرها، وقد صدر الجزء الأول من «تاريخ القرآن» في ١٩٠٩، وعمل عليه مع نولدكه تلميذه شفالي، ثم صدر الجزء الثاني عن تحرير تلميذه فيشر عام ١٩٢٠، وصدر الجزء الثالث عام ١٩٣٧ عبر تحرير تلميذه برجستراسر ثم برتزل. كذلك درس نولدكه «المشنا» وتفاسير الكتاب المقدّس أثناء عمله معيدًا في جامعة جيتنجن، له إلى جانب

=

سردية كرونولوجية للوحي القرآني، تُسند فيها بعض أنماط الوحي القرآني إلى مراحل كرونولوجية بعينها. وقد طعنَت دراسة أجريت حديثًا على كفاءة هذا التأطير الصارم، لكنّ تناوُلَ هذا الإطار الكرونولوجي حتميٌّ من أجل إدراك أهمية نقد النوع في الدراسات القرآنية[١].

=

كتابه الشهير «تاريخ القرآن» كتب حول اللغات السامية، منها: «في نحو العربية الفصحى»، و«أبحاث عن علم اللغات السامية»، عمل أستاذًا في جامعة كيل ثم جامعة اشتراسبورج، كتابه «تاريخ القرآن» مترجم للعربية، حيث ترجمه: جورج تامر، وصدر عن منشورات الجمل، بيروت، ٢٠٠٨. (قسم الترجمات).

(١) Flowers, 'The Two Medinan Literary Oeuvres'.

نحو كرونولوجيا للقرآن قائمة على نقد النوع:

إنّ الترتيب الكرونولوجي الذي طبقه نولدكه على القرآن وفقًا للتغيرات الطارئة على الموضوع الرئيس، والبناء اللغوي للسور كليهما يقسم القرآن وظيفيًّا إلى فترات كرونولوجية؛ بناءً على التغيّر في تبنّي الأنواع، فاتسمت كلّ من الفترات المكية والمدنية باستخدام أنواع أدبية مختلفة فيما بينها تمام الاختلاف. وهناك سببان معقولان لهذه النتيجة؛ إمّا أن ترتيب نولدكه للوحي القرآني بالاعتماد على الموضوع والبناء اللغوي يمثِّل قراءة لتطوّر كرونولوجي للأسلوب القرآني، ويعدُّ الاستعمال المجزأ للنوع الأدبي إحدى سمات هذا التطور الكرونولوجي، أو أن ترتيب نولدكه للوحي بالاعتماد على الموضوع والبناء اللغوي إنما يرتب القرآن وفقًا للنوع الأدبي، وقد عولج هذا الترتيب النوعي بصفته معالجة كرونولوجية لمادته (مادة القرآن).

إنّ تعريف النوع الأدبي هو نفسه ما يدعم رجحان دقّة التفسير الثاني. كما أن تعريف النوع بوصفه «أنماطًا عياريّة من الكلام الموسوم بمحتوى موضوعاتي وأساليب وبُنى تركيبية محددة»[١] يقدِّم توضيحًا مفيدًا لكيفية قيام أيّ تحليل موضوعاتي أو قواعدي [خاص بقواعد بناء الجملة] لنصّ متعدّد الأنواع الأدبية بفصل أنواع الخطاب بإعادة ترتيب كرونولوجي ظاهري لها.

(١) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 60.

وبإمكان المحددات conventions التي تحكم أنواعًا أدبية مفردة أن تشمل كلًّا من الشكل والأسلوب والمضمون، وكلّها اعتبارات أساسية في تحليل نولدكه للنصّ القرآني. وبالفعل، فقد انتبهت *إيمانويل ستيفانيدز* Emmanuelle Stefanidis[١] إلى هذا الجانب متعدّد الأبعاد لتحليل نولدكه، واصفة إيّاه «دراسة أدبية للموضوعات القرآنية»[٢]، وكذلك «محاولة جعل القرآن نصًّا متدرجًا في التطوّر الأسلوبي»[٣]. وهكذا فإن نولدكه يستخدم متغيرات كلٍّ من الموضوع والبناء اللغوي ليعْقِد ترتيبًا كرونولوجيًّا.

في النصوص ذات النوع الأدبي الواحد، من المحتمل أن تترابط التغيرات في مختلف الموضوعات والبناء اللغوي مع مرور الوقت، وعلى الأقلّ لا يحكم هذه المتغيرات عامل واضح خارج التطوّر الكرونولوجي. ولكن في النصوص التي تعرض أنواعًا متعدّدة من أنماط الخطاب يتضح فورًا هذا العامل الإضافي

(١) باحثة فرنسية، حاصلة على دكتوراه من جامعة السوربون، عن دراسة حول القراءات التعاقبية للقرآن، لها اهتمام كبير بدراسة الترتيب الزمني للقرآن وإشكالاته وتطوراته في الدرس الغربي، وقد ترجمنا لها الدراسة المشار إليها من قِبل فلاورز بعنوان: (القرآن خطيًّا؛ دراسة في الترتيب الزمني للقرآن في كتاب تاريخ القرآن)، ترجمة: حسام صبري، منشورة ضمن الملف الثاني على قسم الترجمات «ملف تاريخ القرآن». (قسم الترجمات).

(٢) Stefanidis, 'The Qur'an Made Linear', p. 4.

(٣) Stefanidis, 'The Qur'an Made Linear', p. 5.

في محدّدات الأنواع الأدبية المتعدّدة نفسها. ولأن الأنواع الفردية تُظْهِر سمات خاصة في كلّ من الشكل والأسلوب والمضمون، فإنّ النصّ متعدّد الأنواع الأدبية سوف يعرض بطبيعة الحال اختلافات في هذه العوامل المستقلّة تمامًا عن أيّ اعتبارات كرونولوجية. فعلى سبيل المثال، ستظهر اختلافات في الشكلِ والأسلوب والمضمون بين نصّين مختلفين في النوع الأدبي مكتوبين في الزمن نفسه تمامًا؛ نظرًا لامتثالهما لمحدّدات نوع مختلفة. وعندما ينظم التحليل الأدبي نصًّا متعدّد الأنواع الأدبية بناءً على التغيرات الطارئة على الشكل والأسلوب والمضمون، فمن المحتمل أن تتوافق تلك التغيّرات مع اختلافات موضوعاتية وقواعدية متأصّلة فيما بين الأنواع الأدبية، ويثمر ذلك عن تنظيم النصّ إلى مجموعات نوعية مستقلة، وليس فترات كرونولوجية.

وبالفعل، قام هارتفيغ هيرشفيلد Hartwig Hirschfeld[1] في كتابه *أبحاث جديدة في نظم وتفسير القرآن (١٩٠٢)*، بترتيب الوحي القرآني في كرونولوجية مرتبطة بالاستخدام المتغير لأنماط نوعية محدّدة بلا لَبْس[2]. من المهم

(١) هارتفيغ هيرشفيلد (١٨٥٤-١٩٣٤)، يهودي ألماني، حاصل على الدكتوراه من جامعة ستراسبورغ عام ١٨٧٨، هاجر بعدها إلى لندن ليصبح أستاذًا للغات السامية بالكلية اليهودية بلندن، ثم مدرسَ اللغة العبرية والنقوش السامية بكلية الجامعة بجامعة لندن، معظم دراساته تدور حول القرآن وصلته باليهودية، أولها دراسته للدكتوراه «العناصر اليهودية في القرآن»، و«أبحاث جديدة في تأليف وتفسير القرآن». (قسم الترجمات).

(٢) Hirschfeld, New Researches.

ملاحظة أن ترتيب هيرشفلد للكرونولوجي القرآني بالاعتماد على خرائط الأنواع الأدبية المتعددة في القرآن يرتبط إلى حد بعيد بكرونولوجي نولدكه، ويؤكد من ناحية أخرى نزوع كرونولوجي نولدكه لترتيب القرآن وفقًا للأنواع الأدبية المعمول بها فيه.

لكن هذا لا يعني أن التطوّر الكرونولوجي لا يؤثِّر في النصّ. في الواقع، فالنصوص ذات الأنواع الأدبية المتعدّدة مثل القرآن تتضمّن سببين يكمن وراءهما التحوّل الأدبي، هما: الزمن ومحدّدات النوع. فعند مقاربة ترتيب الوحي القرآني، فإنّ الباحث يواجه صعوبة بالغة هي سؤال: كيف له أن يفسر التغيرات الحادثة في الشكل والأسلوب والمضمون، التي يمكن أن تُنْسَب إلى مصادر منفصلة؛ للتطور الكرونولوجي ومحددات النوع المتنوعة؟

ينبغي على كرونولوجيا القرآن القائمة على طريق التحليل الأدبي أن تُعَرِّف أولًا الأنواع الأدبية للخطاب القرآني، وأن تحلّل تلك الأنواع فُرَادى من أجل تطوير موضوعاتي وقواعدي، وأن تقارن أخيرًا بين التطورات الداخلية بين الأنواع الأدبية وبعضها، بغية جمع التطورات المشتركة. إنّ تقسيم القرآن إلى الأنواع الأدبية التي يتكوّن منها هي الخطوة الأولى والأهم في هذا التحليل النقدي للنوع الأدبي، أي: يجب أن تُحَدَّد الأنواع الأدبية المتعدّدة للقرآن، وتُعَيّن داخل النصّ، وتفصل إلى مجموعات من الأنواع المتشابهة. مؤكَّدٌ أن

تلك مهمّة صعبة؛ إذ تتطلب تحديدًا دقيقًا لكلّ نوع أدبي للقرآن، والجهاز الذي -وفقًا له- تتمايز هذه الأنواع داخل النصّ.

هناك كثير من الدراسات التي كتبها باحثون غربيون بخصوص الأنواع الأدبية المعثور عليها في القرآن، والمعالجات الأخيرة تتضمن أعمال ألفرد-لويس دو بريمار Alfred-Louis de Prémare وكارل إرنست Carl Ernst وأنجيليكا نويفرت[1] Angelika Neuwirth ونيل روبنسون Neal Robinson. لسوء الحظ، لا توجد نظرية موحّدة حول النوع الأدبي للقرآن يمكن تطبيقها

(١) أنجيليكا نويفرت Angelika Neuwirth (١٩٤٣-) من أشهر الباحثين الألمان والأوروبيين المعاصرين في الدراسات القرآنية والإسلامية. أستاذ الدراسات السامية والعربية في جامعة برلين الحُرّة، درست الدراسات السامية والعربية والفيلولوجي في جامعات برلين وميونيخ وطهران، عملت كأستاذة ومحاضرة في عدد من الجامعات، مثل: برلين وميونيخ وبامبرغ، كما عملت كأستاذة زائرة في بعض الجامعات، مثل: جامعة عمان بالأردن، وجامعة عين شمس بالقاهرة.

أشرفت على عدد من المشاريع العلمية منها: مشروع (كوربس كورانيكوم). ولها عدد من الكتابات والدراسات المهمّة في مجال القرآن ودراساته. من أهمها:

Der Koran als Text der Spätantike: Ein europäischer Zugang, 2010

القرآن كنصّ من العصور القديمة المتأخرة، مقاربة أوروبية.

وقد ترجم للإنجليزية هذا العام فصدر بعنوان:

The Qur'an and Late Antiquity: A Shared Heritage, 2019

Studien zur Komposition der mekkanischen Suren, 1981

دراسات حول تركيب السور المكية. (قسم الترجمات).

بسهولة على النصّ؛ نظرًا لأن ما يؤلّف نوعًا مفردًا عادة ما يكون غير متماسك ومطروحًا للجدال.

إنّ مشكلة تحديد أنواع أدبية مفردة للخطاب القرآني تزداد تعقيدًا بسبب العلاقة بين النوع الأدبي والسورة. والتنوع بين السور الـ١١٤ للقرآن يفاقم تلك المشكلة، إذ يظهر أن بعض السور تَتَبَدَّى كنوعٍ أدبيٍّ واحدٍ، وبعضها كجَمْعٍ لحالات متعدّدة لنوعٍ واحدٍ، وبعضها كجَمْعٍ لأنواع متعدّدة. ونظرًا لأن العلاقة بين النوع الأدبي والسورة تختلف عبر المدونة القرآنية، يكون السعي إلى تقسيم كلّ سورة إلى الأنواع الأدبية التي تتألّف منها أمرًا مهمًّا. من المؤسف أنّه لم يسعَ أحد لتطبيق عمليةٍ كهذه على نصّ القرآن بأكمله؛ لذلك لا يبدو أن هناك منهجًا لتقسيم القرآن إلى الأنواع الأدبية التي تؤلّفه.

سيسعى هذا البحث لأنْ ينتهي إلى تحليلٍ بنيويّ جديدٍ للنصّ القرآني، ييسِّر تقسيم القرآن إلى كلامه المنطوق الأصلي -وسنناقش هذا فيما بعد- الذي مثَّل الوسائط الأصلية لـ(تواصلية) النوع القرآني. وإنشاء منهج للتحليل الأدبي كهذا الذي بإمكانه أن يفصل بين أمثلة مفردة للأنواع الأدبية المحيطة بالمدونة القرآنيّة، له أهمية بالغة في توظيف منهج نقدي للنوع الأدبي في كشف كرونولوجي القرآن.

بمجرد الكشف عن جميع الحالات المفردة للنوع الأدبي القرآني واستخلاصها من سياقاتها المباشرة، يجب وضع كلّ الحالات المدرجة تحت نوع أدبي واحد معًا في مجموعات وتحليلها؛ ومن هنا تخضع كلّ مجموعة إلى نوع من التحليل الأدبي المعمول به في تاريخ القرآن لنولدكه، وترصد التغيرات في الموضوع والبناء اللغوي في مخطط خاصّ بكلِّ نوع أدبي. ويؤدي تضييق نطاق التحليل الأدبي إلى مستوى النوع المفرد، إلى استبعاد متغيّر الأنواع الأدبية الأخرى الذي يغير نمط النصّ وأسلوبه ومضمونه. وباستبعاد ذلك المتغير يكون محتملًا أن ترتبط التغيرات أو الأنماط Patterns الموجودة في موضوع أو بناء لغوي للنوع الأدبي بتطورٍ كرونولوجيٍّ ضمن استخدام القرآن لهذا النوع. وينبغي تطبيق هذا التحليل على كلّ مجموعة مندرجة تحت نوع أدبي معين. وبمجرد الانتهاء من ذلك، سيخضع كلّ واحدٍ من الأنواع الأدبية للقرآن إلى تحليل موضوعاتي وقواعدي، كما سيتم رصد أيّة تطورات.

أخيرًا، تجب المقارنة بين نتائج التحليلات الأدبية لكلّ مجموعة مفردة من الأنواع الأدبية، والهدف من وراء هذه الخطوة هو اكتشاف التطوّرات الأدبية المشتركة بين الأنواع المنفصلة. قد تكون هذه التطورات موضوعاتية أو قواعديّة، متراوحة بين التغيّرات المشتركة في المصطلحات والتغيّرات في طول الآية، ولكن بِغَضِّ الطرف عن الظاهرة المطروحة للنقاش، فإنّ الهدف هو فهم أنماط قابلة للاستخدام في جميع الأنواع الأدبية بمختلف محدّداتها. وكما

سنناقش لاحقًا في هذا المقال، إذا ظهرت دلائل على أنماط موضوعاتية أو قواعدية متشابهة بين الأنواع الأدبية، فمن الممكن استنتاج أن الأنواع الأدبية التي تعرض تلك الأنماط تتطور عبر نفس المرحلة الكرونولوجية. وينبغي التأكيد على أن تلك الاختلافات والأنماط في استخدام الموضوع والبناء اللغوي عبر الأنواع الأدبية المختلفة إنما هي اختلافات مترابطة، فمثلًا؛ لا يكون من الضروري أن تصل الأنواع إلى استخدامات متكافئة، ولكن أن تظهر اتجاهات مماثلة، والميزة الرئيسة لهذا التحليل المقارن هي إبراز فعالية الأنماط المشتركة عبر الأنواع في إيضاح التطور الكرونولوجي. ورغم ذلك، لا يمكن مناقشة التطور الكرونولوجي انطلاقًا من الاختلافات فيما بين الأنواع الأدبية الظاهرية للقرآن، أي: إنه من غير الممكن اعتبار النوعين الأدبيّين بعيدين كرونولوجيًّا لمجرد عرضهما توظيفات مختلفة من حيث الموضوع أو البناء، ويُعْزَى ذلك إلى التزام الأنواع الأدبية المختلفة بمحدّدات مختلفة فيما يخصّ الشكل والأسلوب والمضمون. وقد تظهر أمثلة لنوعين مختلفين من الأنواع الأدبية المؤلَّفة في المرحلة الكرونولوجية ذاتها مختلفة إلى حدّ كبير، ولكن هذه الاختلافات بينهما قد تُنْسَب إلى اختلاف محدّدات النوع. أمّا إذا أبدى نوعان أدبيّان مختلفان فيما بينهما تمام الاختلاف تغيراتٍ موضوعاتيةً أو قواعديةً متشابهةً من خلال الأمثلة التي تخصهما على حدة، يمكن الدفع بفرضية التطور الكرونولوجي، إذ يقدِّم التطوّر الكرونولوجي التفسير المتبقي لأنْ تتزامن أنماط

أسلوبية مختلفة[١]. وتجب المقارنة بين التطورات الموضوعاتية والقواعدية الداخلية للنوع الأدبي الواحد؛ حتى يتم التحقق من تسلسلٍ للوحي القرآني يؤدي إلى تقدّمٍ متماسكٍ ومتناغم فيما بين أجزائه في استخدامه النوع الأدبي، أي: تقدمًا كرونولوجيًّا.

ونأمل أن تسفر نتائج هذا المنهج النقدي النوعي لكرونولوجيا القرآن عن فهمٍ أدقّ لسير العملية الكرونولوجية للوحي القرآني، حيث تُستخدَم أنواع أدبية مختلفة للخطاب وتُطَوَّر معًا في نفس الوقت، وبعض الأنواع الأدبية تكتسب أفضليتها أو تخسرها بمرور الوقت. لا يُتوقَّع من هذا المنهج لكرونولوجيا

(١) إن الحجة القائلة بأن التغيرات الأساليبية و/ أو الموضوعاتية المتماثلة عبر مجموعات الأنواع الأدبية المختلفة تتوافق مع ترتيب كرونولوجي للنصوص إنما هي جديدة على حدّ علمي، ولكنها متأصلة في المناهج الأدبية الحالية لاستنتاج كرونولوجيا نسبية بين نصوص النوع الواحد. وقد كان كتاب: " The Chronology of the Qur'ān" لصادقي. بالتحديد، نقطة انطلاق هذه الحجة. يناقش صادقي أنه إذا استطاع تسلسل الوحي القرآني أن يبرهن على تغيرٍ أساليبي تدريجي أو «سَلِس»، فمن شأن ذلك التسلسل أن يقدم ترتيبًا كرونولوجيًّا للوحي. لسوء الحظ لا يفسّر صادقي التغيّر في محددات النوع المؤثرة على أسلوب النصّ، وأعتقد أن ذلك الأمر يقوّض الاستنتاجات التي استخلصها من تحليله. ومع ذلك، فإذا أزيل متغير محددات النوع المختلفة، فمحتمل أن يتوافق تغيّر أسلوبي تدريجي في تسلسل محدود للوحي القرآني، مع ترتيبٍ كرونولوجي، إذ لا يوجد دافِع آخر واضح للتغير. يقسم تحليل النوع القرآني -مثل المطروح في هذا البحث- القرآن إلى أنماطه النوعية التي يتألف منها، ويسمح بتطبيق هذا النوع من التحليل بفاعلية.

القرآن أن يُنشِئ كرونولوجية قرآنية مختلفة جذريًّا عن التي قدّمها نولدكه، لكن في حين احتمال الأمر، فإن الهدف من وراء تحليلٍ نقدي للنوع القرآني هو تطبيق التحليل الأدبي لنولدكه على نصّ قرآني متعدّد الأنواع الأدبية من خلال تقليل المتغيرات المحتملة للاختلاف الأسلوبي. ومع ذلك، وبفضل نزعة كرونولوجيا نولدكه إلى تقسيم الوحي القرآني إلى مراحل كرونولوجية تتسم بالاستخدام المحدّد للنوع الأدبي، فمن المهم أن نتحرّى إذا ما كان هذا التقسيم وفقًا للنوع ظاهرة كرونولوجية بالفعل أم أن تحليل نولدكه يقسم القرآن دون قصد وفقًا لمحدّدات النوع، وليس تطورًا كرونولوجيًّا. لا يمكن تحقيق ذلك إلّا من خلال فهم الأشكال المختلفة للنوع الأدبي للقرآن والاستفادة من المنهج الأدبي لمقاربة نصّ القرآن، حيث تُحدد الأنماط النوعية التي يتكون منها، ويتم تمييز التطورات النوعية الداخلية، وتتم مقارنة هذه التطورات بين الأنواع.

استعراضٌ للدرس الغربي حول النوع الأدبي للقرآن:

قبل محاولة تأسيس إطار أدبي لمقاربة النوع الأدبي للقرآن، سيكون أمرًا مناسبًا استعراضُ اشتباك الدرس الغربي مع النوع القرآني. إنّ النظر في أعمال ريتشارد بيل وأنجيليكا نويفرت ونيل روبنسون وألفريد لويس دو بريمار وكارل إرنست حول النوع الأدبي للقرآن يوضح ثلاثة عوامل أساسية ينبغي الالتفات إليها عند مقاربة النوع القرآني[١]؛ **أولًا**: درجة التباين الكبيرة في الشكل والمضمون كليهما على طول النصّ. **ثانيًا**: العلاقة بين الشكل والمضمون من جهة، والوظيفة السوسيودينية من الجهة الثانية. و**ثالثًا**: النطاقات الثلاثة المختلفة للنوع القرآني، وهي؛ القرآن مدونة كاملة، والسورة، ومقاطع السورة.

وتشير أعمال الباحثين الغربيين إلى درجة عالية من التنوع في الأنواع الأدبية في النصّ القرآني، رغم اتفاقهم في الغالب على تصنيفاتهم. وتنتج أعمال الباحثين المذكورين آنفًا بين ست إلى ثماني فئاتٍ من الأنواع الأدبية للقرآن، لكن هذا

(١) راجع: "Introduction to the Qur'ān;" لريتشارد بل، و"Aux origines du Coran" لدو بريمار، و"Discovering the Qur'an" لروبنسون، و"How to Read the Qur'an؟" لكارل إرنست، و"Scripture, Poetry and the Making of a Community" لأنجيليكا نويفرت، ‘Some Remarks لنويفرت، "Structural, Linguistic and Literary Features" لنويفرت.

لا يشمل الأنواع الفرعية المضمنة في التصنيفات الرئيسة[١]. توجد تشابهات في التصنيفات نفسها، بالاتفاق مع التشابه في عدد تصنيفات النوع الأدبي. فمثلًا، علّق كلّ من تلك الأعمال على سردية القرآن وأنماطه الإسكاتولوجية/ الأخروية والجدالية والتشريعية. وبالرغم من ذلك، يحجب هذا التوافق النسبي مشكلة منهجية خطيرة مميزة لمجال لا يألَف نقد النوع، فكلّ دراسة تحدّد الخصائص الأسلوبية للأنماط الأدبية للقرآن بشكلٍ مختلفٍ، بتفضيلات هذه الدراسات المختلفة للنمط أو المضمون أو الوظيفة وفقًا لتعريفاتها لكلّ نوع على وجه الإفراد.

ثانيًا؛ فرجحان النظم الشفهي للقرآن -جنبًا لجنبٍ مع توثيقه لشواغل المجتمع المسلم الناشئ ومعتقداته وممارساته- يصبغ أنماطه الأدبية المُكَوِّنة بوظائف سوسيودينية مقابلة. وقد جادل الباحثون عن نظم شفهي للقرآن منذ زمن بعيد، واستفاد أندرو بانيستر Andrew Bannister مؤخرًا من تحليلٍ شفهي مركّب للنصّ القرآني ليجادل عن النظم الشفهي مرتكزًا على أسسٍ أسلوبية[٢]. كما يتّضح أيضًا من الإشارات القرآنية الكثيرة إلى مجتمعٍ مؤمنٍ

(١) تجدر الإشارة، إلى أنه بالرغم من ذلك فإن مصطلح (النوع) نادرًا ما يستخدم صراحة في النصوص، وتستخدم بدلًا من ذلك مصطلحات ذات معانٍ تقريبية، مثل (سِجِل/ قيد) التي يستخدمها روبنسون في أعماله.

(٢) Bannister, An Oral-Formulaic Study

وتوجيهاتٍ نحو سلوك قويم أن المضمون القرآني وثيق الصلة بتجارب حركة دينية ناشئة. من هذا المنطلق تشارك الأنواع الأدبية للقرآن في تطوير المجتمع لكونها أدوات التواصل بين رسالة الوحي ومتلقيه للعمل به. ويرتكز تقدير أنجيليكا نويفرت مثلًا على ربطها البنية الأدبية للسورة بالبنية الطقسية/ الشعائرية للممارسة الدينية، وقد يكون مفيدًا أنْ نَصِفَ تحليلها بأنه التحديد الأشمل للنوع الأدبي للسورة كـ(صلاة ليتورجية/ طقسية) بينما تندرج سور أخرى محدّدة تحت أنواعٍ أدبية ثانوية لهذا التصنيف[١]. وسواء ارتبط النوع الأدبي للسورة بالممارسة الطقسية الإسلامية المتقدمة أم لا، فإن مزاوجة نويفرت بين النصّ والوظيفة الاجتماعية ملهمة. إنّ الحجج التي يقدّمها القرآن لمستمعيه/ متلقيه قد صيغت في أنماطها الأدبية المتعددة، وذلك هو السبب وراء النظر إلى الأنواع الأدبية للقرآن كأنما ترتفق بخصائصها الموضوعاتية والشكلية في خدمة وظيفة كوميونية (اجتماعية).

ثالثًا؛ يجب على الإطار الأدبي الموضوع لمقاربة النوع الأدبي للقرآن أن يفسِّر ثلاثة منظورات مختلفة، هي: القرآن مدونة كاملة، والسورة، والمقطع من السورة. وقد قارب الباحثون السالف ذكرهم الأنماط النوعية للقرآن على مستوى المقطع، فعندما يقوم الباحثون بتصنيف الأنماط الأدبية للقرآن إلى

(١) Neuwirth, 'Some Remarks'.

سردية وأخروية وتشريعية، إلى آخره، فإنهم يشيرون عادةً إلى صور الأنواع الأدبية التي تُجمع لتكون السورة. وتكمن المفارقة في أن أكثر جوانب النوع الأدبي للقرآن إهمالًا في المصادر الثانوية الغربية هي النوع الأدبي للقرآن ذاته، وغالبًا ما تحيل خصائص النوع الأدبي للقرآن كمدونة كاملة إلى ملاحظات ختامية حول الخصائص الأسلوبية للسور أو لمقاطع السورة، ولا تُقَدَّم سوى الفرضيات الأولية. إن الافتقار إلى بحث جادّ حول النوع الأدبي للقرآن أمرٌ مؤسف رغم كونه متوقعًا، ولأن السورة تتألّف من مقاطعها، ويتألّف القرآن من سُوَرِه؛ فإن فهم النوع الأدبي للقرآن يلزم فهمًا لصور النوع الأدبي لمقاطع السورة لكلّ السور على التوالي. وبهذا تكون المنظورات الثلاثة للنوع الأدبي للقرآن تراكمية، وقد تَسَبَّب غياب الدراسة الشاملة للنوع الأدبي في مقاطع السورة بتقويض دراسة أشكال الأنواع الأدبية الأكبر.

إسهامات نظرية النوع الأدبي:

يتّفق الباحثون على أنّ النوع الأدبي للقرآن لا يمكن الحديث عنه بوصفه مفهومًا راسخًا، سواء من جهة الشكل والمضمون والوظائف السوسيودينية، أو من جهة نِطاقه. لسوء الحظ، تفتقر الدراسات القرآنية إلى إطار أدبي ملائم لدراسة النوع الأدبي للقرآن، إِذْ لم يَسْعَ الباحثون إلى فهمِ الأشكال الأدبية للقرآن على أيّ نحو أسلوبي، وقد أسفر ذلك عن نشازٍ مصطلحي ومنهجي.

ومن أجل تطوير إطار منهجي لمقاربة النوع الأدبي في القرآن، تلزم مراجعة الأفكار المتعلّقة بالنوع الأدبي التي تطوّرت في حقل دراسات النوع. وبالنسبة إلى العملين النافذين المستقصى عنهما هاهنا " The Problem of Speech Genres"[١] لميخائيل باختين Mikhail Bakhtin، و" Genre As Social Action'"[٢] لكارولن ر.ميلر Carolyn R. Miller، فإنهما يوفّران ركيزة لفهمِ كلٍّ من البناء الأدبي للنوع، والعلاقة بين النوع والوضعيات الاجتماعية. سوف تحدّد الدعوة الأولى لعمل باختين دورًا أساسيًّا للكلام في التواصل ودوره البنائي كنوع أدبي خطابي، بينما الإشارة إلى عمل ميلر فسوف تثبت أن أَشكال النوع الأدبي تؤثّر على الوضعيات الاجتماعية المتكرّرة. في النهاية، فإن الإطار

(١) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres

(٢) Miller, 'Genre As Social Action

التحليلي لتعريف الكلام، وتحليل محدداته النوعية، وربط بنًى نوعية محددة بملابسات اجتماعية محددة، سيعزز التحليل المقترح للنوع الأدبي للقرآن.

وفقًا لباختين، فإنّ كلّ تواصل شفهي أو كتابي يحدث في هيئة كلام ذي حدودٍ شكلية. والكلام هو الوحدة التأسيسية للتواصل، فأيّ شيء يتناقله المتحدث يُطرح تَلَفُّظًا/ تكلُّمًا. بناءً على ذلك، قد يُظْهِر الكلام أشكالًا مختلفة تمامًا، ولكن باختين يحاجج أنه «بغضّ الطّرف عن مدى اختلاف الكلمات من حيث الطول والمضمون والبنية التركيبية، فإنّ لها خصائص بنيوية بصفتها وحدات التواصل الخطابي، وقبل ذلك، فإن لها حدودًا في أتم الوضوح»[١]. حدود الكلام ببساطة هي بداية الحديث ونهايته. ويتصور باختين أن الكلامَ محدودٌ بـ«تغيّر في موضوعات الحديث»، فالكلام يبدأ عندما يبادر المتكلم بالتواصل، وينتهي عند انتهاء المتكلم منه[٢]. ويمكن للجمهور أن يدرك الانتهاء من الكلام لأسباب مختلفة، لكن أكثرها صلةً بدراستنا، والتي استفاض باختين في شرحها هي «الصور النوعية والتركيبية للإنهاء»[٣]. يتعرّف الجمهور بدقّة على

(١) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 71.
(٢) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 71.
(٣) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 77.

الانتهاء من الكلام بفضل تعرّفهم على القالب النوعي المميِّز للكلام، ويتعرفون بالتالي على النهاية المثالية لكلّ قالب نوعي.

في الواقع، بينما يعدُّ الكلام وسيلة للتواصل، يجب على الكلام المفهوم أن يتّخذ قالبًا لنوعٍ مميِّزٍ من الكلام. والكلام أداة مفاهيمية مفيدة لفهم فِعل التواصل، لكن باختين يوضح الآتي: «إنّنا نتحدّث مستخدمين أنواعًا محدّدة فقط من أنواع الخطاب، أيْ إنّ كلّ [عمليات] الكلام لها أشكال نموذجية محدّدة وثابتة نسبيًّا من البناء الكلي»[(١)]. ولأن الكلام دائمًا ما يتّخذ شكلًا لنوع خطابي محدّد، فإنّ أيّ تحليل شكلي للتواصل هو بالضرورة تحليل شكلي للمحدّدات النوعية المستخدمة فيه. وأنواع الخطاب بوصفها الأشكال التي يتخذها الكلام بأنواعه، هي الوسيلة التي تتصل بها مجموعة كبيرة من الأنشطة الإنسانية.

وأنواع الخطاب حسب وصف باختين، هي صور معيارية للألفاظ المميزة بمحتوى موضوعاتي وأساليب وبنًى تركيبية. وتتميز الأنواع المختلفة للخطاب بالملامح الموضوعاتية والشكلية، كما تتميز عن بعضها بعضًا وفقًا لهذه الأسس. يحصي باختين السمات الثلاث المُحدِّدة لأنواع الخطاب في: «المحتوى الموضوعاتي، والأسلوب، والبناء التركيبي»، ويذهب إلى القول بأنّ

(١) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 78.

الدمج بين هذه المتغيرات الثلاثة في كلّ واحدٍ من أنواع الخطاب مُحدَّدٌ «حسب الطبيعة الخاصّة لمجال محدّد من التواصل»[١]. ومجالات التواصل متغيرة إلى حدٍّ كبيرٍ، متراوحة من كلّ أنواع المحادثات الحميمية حتى الإشهارات العلانية، لكن نظرًا لتكرار بعض هذه المجالات فإنّ «كلّ مجالٍ تُستخدم فيه اللغة، يطوّر أنواعًا ثابتة نسبيًّا من تلك الخاصّة بالكلام. هذا ما يمكننا أن نطلق عليه: أنواع الخطاب»[٢]. وتعدُّ أنواع الخطاب أشكالًا عيارية للتواصل الذي يتطور مستجيبًا لمواقف اجتماعية متكرّرة، وتمامًا كما تتطور المواقف الاجتماعية التي نصادفها في الحياة اليومية باستمرار تتطور أنواع الخطاب المستخدمة.

ومن بين أنواع الخطاب، هنالك نوعان شاملان هما النوع الرئيس والنوع الثانوي للخطاب. ورغم أنهما معرفان تعريفًا مبهمًا، فإنّ الأنواع الأولية للخطاب تتألّف من أشكال بسيطة من (الخطاب المُشَارَك بغير وساطة)، حيث يُستخدَم فيها نوع واحد من أنواع الخطاب[٣].

(١) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 60.
(٢) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 60.
(٣) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 62.

تتضمن أمثلة الأنواع الأولية للخطاب «الردود في المحادثات والحكايات اليومية والرسائل والمذكرات والمَحاضر.. وهلمّ جرًّا»[١]. وتقابلها أمثلة الأنواع الثانوية التي طرحها باختين: «كالروايات والمسرحيات وأنواع البحوث العلمية كلها والأنواع الرئيسة للتعليق»[٢]. ويكمن الفارق الأساس بين أنواع الخطاب الأولية والثانوية في أن الأنواع الثانوية تضم عديدًا من الأنواع الأولية للخطاب بداخلها، أيْ إنّ أنواع الخطاب الثانوية هي الكلام المعقّد الذي يمزج بين أنواع الخطاب الأولية بغرض إنتاج وحدة منظمة واحدة. يصف باختين الأنواع الثانوية للخطاب كما يأتي[٣]:

تقوم الأنواع الثانوية أثناء عملية تكوينها بامتصاص وهضم كثير من الأنواع الأولية (البسيطة) التي اتخذت شكلًا في الخطاب المُشَارَك بغير وساطة. تلك الأنواع الأولية متبدّلة وتتخذ طابعًا مميزًا عندما تشكِّل جزءًا من أنواعٍ معقدة.

تعدُّ الرواية أكثر أمثلة النوع الثانوي للخطاب شيوعًا. يطرح باختين مثالًا رواية تحتوي على عديدٍ من أمثلة المحادثات اليومية أو الرسائل[٤]؛ تتركب كلّ محادثة أو كلّ رسالة على حِدَة من نوع أوّلي للخطاب خاصّ بها، ولكن عند

(١) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 98.
(٢) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 62.
(٣) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 62.
(٤) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 62.

دمج بعضها ببعض، تفقد المحادثات اليومية أو الرسائل فردانيتها وتصبح أجزاءً أصغر من التركيب الأدبي الأكبر للرواية. في سياق التركيب الأدبي للقرآن، سوف يقال إنّ السور يجب أنْ تُعَدّ أنواعًا أدبية ثانوية بقدر ما تتضمن عادةً صورًا متعددة للكلام المفرد.

أخيرًا؛ يحاجج باختين بأن تحليل التغيرات الطارئة على المضمون الموضوعاتي والأساليب والبناءات التركيبية لأنواع الخطاب هي أداة مهمّة في دراسة الظروف التاريخية التي أنتجت أنواع الخطاب. ومناقشة باختين حول العلاقة بين المُخاطِب والمُخاطَب في الكلام تنويرية، خاصّة فيما يتعلّق بمقدرة أنواع الخطاب على التأثير في الظروف الاجتماعية، ويجادل بأنه[١]:

في ظلّ البنيان الطبقي، وبالأخصّ البنيان الطبقي الأرستقراطي، يلاحِظ المرءُ تباينًا شديدًا في أنواع الخطاب وأساليبه، رهنٌ باللقب والطبقة والمكانة والثروة والأهمية الاجتماعية وسن المخَاطَب والوضع النسبي للمتكلِّم (أو الكاتب).

يتألف كلّ واحدٍ من أنواع الخطاب من المحدّدات الأدبية المحدَّدة التي تتوافق مع الاحتياجات الاجتماعية لمواقف بعينها، فعلى سبيل المثال، قد

(١) Bakhtin, 'The Problem of Speech Genres', p. 96.

يعتمد كل من صيغة الخطاب mode of address، والتشكيل اللغوي، وموضوع الخطاب على المكانات الاجتماعية النسبية للمتحدّث وللمتلقين. ورغم ذلك، فإن باختين -في المقام الأول- مهتم بالخصائص الشكلية للأنواع الأدبية للخطاب، لكن لم تسبر أغوار العلاقة الكائنة بين النوع الأدبي والظروف التاريخية لتطورها واستخدامها إلّا مع ظهور عمل كارولن ر.ميلر " Genre As Social Action ".

والحجة الأساسية لميلر هي أنّ أنواعًا محددة من الخطاب discourse تعدُّ انعكاسًا لمواقف اجتماعية مكرّرة. تصف ميلر أنواعًا محدّدة بأنها تُطوِّر أشكالًا أدبية ردًّا مباشِرًا على مواقف بعينها[١]. وفي مرحلة مبدئية، يتواصل المتكلم ردًّا على موقفٍ معاش. ولكن بما أن هذا النوع من المواقف يتكرّر في المجتمع، كذلك الحال بالنسبة إلى أنواع الخطاب المستخدمة للاستجابة عليها. فعندما يتكرّر نوع معين من أنواع الكلام ردًّا على موقف متكرر، فإنه يصبح استجابة قياسية لهذا الموقف، لتصبح نوعًا خطابيًّا a genre of discourse. وتعدُّ الأنواع الأدبية استجابات نموذجية لمواقف اجتماعية محدّدة، ويعكس محتواها الموضوعاتي وأسلوبها وبُناها التركيبية الموقف الذي تستجيب له.

(١) Miller, 'Genre As Social Action', p. 152.

تؤكّد ميلر العلاقة بين النوع والملابسات الاجتماعية بجدالها أن «عدد الأنواع الحاضرة في أيّ مجتمع غير محدّدة، وتعتمد على تعقُّد وتنوّع المجتمع»[١]. والعلاقة بين الأنواع والمواقف الاجتماعية تقدِّم أداة قوية للمؤرِّخ؛ إِذْ إنّ تحليل الأنواع الأدبية المختلفة المستخدمة في المجتمع تخبر المؤرخ بكلٍّ من أنماط المواقف المتكرّرة التي يواجهها هذا المجتمع، وكذلك تصوّرات المؤلفين عن تلك المواقف. وفي مناقشة التطبيق العلمي لنقد النوع، تقترح ميلر ما يأتي[٢]:

إن دراسة الاستخدام الأمثل للبلاغة والأشكال التي تتخذها في هذه الاستخدامات تخبرنا عن فنِّ الخطاب الفردي أو تميُّزِ نصوصٍ بعينها، أقلّ مما تخبرنا عن طبيعةِ ثقافةٍ ما أو مرحلةٍ تاريخية.

هكذا، يقوم تصنيف وتحليل استخدام النوع الأدبي في مرحلة تاريخية معيّنة بأن يوفّر لنا منهاجًا بديلًا عن البحث التاريخي للممارسات الاجتماعية لهذه المرحلة.

بناءً على ذلك، ولارتباط الأشكال النوعية بالمواقف المتكرّرة، فإن التغيرات الواقعة على الأشكال النوعية قد توازي التغيرات الواقعة على طبيعة

(١) Miller, 'Genre As Social Action', p. 163.
(٢) Miller, 'Genre As Social Action', p. 158.

تلك المواقف المتكررة و/ أو تصورات المؤلف عنها. إن تحليل مثال واحد لنوع أدبي محدّد كالتأبين، قد يتيح للمؤرخ أن يجمع معلومات محدودة حول ممارسة مدح المتوفى في وقت صوغ التأبين. ورغم ذلك نحصل رؤية تاريخية أكبر عبر مقارنة جميع أشكال الأنواع الأدبية الخاصّة بمرحلة تاريخية معيّنة، وهذا التحليل المقارِن يثمر عن فهمٍ أشمل للنوع وللممارسات الاجتماعية التي يعكسها، وربما الأهم من ذلك أنه يسمح بتحليل لتطوّر النوع عبر الزمن. ولأن المحتوى الموضوعاتي والأسلوب والبناء التركيبي للنوع يتشكلون استجابةً لمواقف اجتماعية معيّنة، فإنّ أيّ تغيرات تطرأ على شكلِ النوع قد تشير إلى تغيرات في المواقف الاجتماعية التي تعكسها، أو تغيرات في تصورات المتحدّث عن/ في الموقف. وعلى امتداد هذا، فعندما يكون التتابع الكرونولوجي لمجموعة من النصوص غير معروف، فالتعرّف على التطور في الأنماط النوعية للنصوص قد يوحي بترتيب كرونولوجي وجيه. وقد تكون مقارنة تكرار استخدام النوع الأدبي بين الأنواع المختلفة مقارنة مفيدة أيضًا، فمثلًا، إذا استُخدِمَت أشكال من الأنواع التشريعية بشكلٍ ضئيل في مرحلة تاريخيةٍ ما، ثم شاع استخدامها فجأة في مرحلة لاحقة؛ فمن الممكن مناقشة أنّ وقوع تغيُّر في الظروف التاريخية مما يسهّل إنتاج الأنواع التشريعية في المرحلة الأخيرة.

وكما أثبت باختين وميلر، فإنّ جميع مظاهر التواصل تحدث على هيئة كلام، ويجب أن يتخذ هذا الكلام شكل نوع الخطاب، وتعدُّ أنواع الخطاب أشكالًا موحدة من الكلام التي تُظْهِر مضمونًا موضوعاتيًّا وأنواعًا وبُنًى تركيبية محدّدة. ونظرًا لأن الأشكال النوعية تؤثر على مواقف اجتماعية بعينها، فمن الممكن أن تستخدم لتحليل الملابسات التاريخية لإنتاجها. هذا الإطار لفهم النوع الأدبي يمكن تطبيقه بصورة مثمرة على النصّ القرآني، ولكن خصوصيات نصّ القرآن (أي: التنوع في أنواع الخطاب، والاختلاف في طول الآية والسورة كلتيهما، ونقص الحدود الواضحة بين الوحدات النصية داخل السورة) تستلزم مزيدًا من النقاش حول التعريف بالأنواع الأدبية المختلفة بدقّة، وتحديدها واستخلاصها من النصّ القرآني الأكبر[١].

الدمج بين رؤى الاشتغال السابق على النوع الأدبي للقرآن من ناحية، وبين نظرية النوع من الناحية الأخرى، ينتج إطارًا للبحث حول النوع القرآني يؤسّس لكون الأنواع الأدبية الرئيسة للقرآن هي وحداتٌ محدّدة موضوعاتيًّا وقواعديًّا، عارضةٌ محتوًى موضوعاتيًّا وأساليب وبُنًى تركيبية بعينها. ومؤسفٌ أن تلك الأشكال من الأنواع الرئيسة ليست محدّدة في النصّ القرآني نفسه. ولتعريف

(١) للاطلاع على استخدام النقد النوعي في الدراسات الكتابية، انظر: Bakhtin and Genre "Theory" لبور.

أمثلة مفردة لنوعٍ قرآني، وتحديدها واستخلاصها، يجب تطوير طريقة للتحليل الأدبي بإمكانها إعادة اكتشاف حدود الكلام وأشكالها النوعية بداخل النصّ. بمجرد إعادة اكتشاف الحدود الفاصلة بين الأنواع الأدبية سوف يمكن تمييز كلّ نوعٍ بناءً على توظيفه المحتوى الموضوعاتي والأسلوب والبناء التركيبي. وإذا عُثِر على أشكال نوعية متعدّدة في السورة الواحدة، يمكن أن تُحلّل السورة نفسها على أنها نوع ثانوي يجمع بين أشكال نوعية أبسط ويستأثر بها. وأخيرًا، يمكن أن ترتبط الأشكال النوعية للقرآن (سواء كانت أنواعًا رئيسة أو ثانوية) بمواقف اجتماعية معينة في المجتمع المسلم المبكر.

إطار أدبي لمقاربة النوع الأدبي للقرآن:

ينبغي أن يكون تصنيفُ مختلَفِ الأشكال النوعية الموجودة في القرآن هو الهدف الرئيس لتحليل النوع القرآني؛ لكن تلك العملية معقدة؛ لسببين: النطاقات الثلاثة للنوع الأدبي القرآني، والافتقار إلى تقسيمات واضحة في النصّ بين الأنواع على مستوى المقطع من السورة. وكما ذكرنا سلفًا، فقد فرّق الباحثون في القرآن بين ثلاثة نطاقات مستقلّة للنوع القرآني: مقطع السورة، والسورة، والقرآن مدونة كاملة. والعلاقة بين تصنيفات النوع الأدبي الثلاثة تراكمية؛ فمقاطع السور تكوِّن السور، والسور تكوِّن القرآن. وتشكِّل مقاطع السورة نوعًا أدبيًّا رئيسًا للقرآن، كما أن بواسطتها تتشكّل الأنواع الثانوية للسورة وللقرآن.

لذلك يجب أن يبدأ التحقيق حول النوع الأدبي للقرآن بتحليل مقطع السورة؛ إذ لا يمكن أن يُفْهَم النوع الأدبي للسورة إلّا إذا كانت الأنواع الأولية التي تكوّنها مفهومة.

رغم ذلك يَفهم أيّ قارئ للقرآن أن التقسيمات البيّنة الوحيدة والطبيعية في النصّ هي تلك الفاصلة بين الآيات والفاصلة بين السور، فلا وجود لتقسيمات نصيّة بين مقاطع السورة في الواقع. ففي النصّ القرآني الواقع بين أيدينا بشكله الحالي، ينبغي الاستدلال على أيّ وحدة أدبية بين مستوى الآية ومستوى

السورة عن طريق الإلماح الموضوعاتي والقواعدي في النصّ. وعندما يناقش الباحثون الأقسام الفرعية أو الأنواع الأدبية المكوّنة للسور، فإنهم يناقشون الوحدات الأدبية غير الواضحة في النصّ نفسه. ومن أجل تحليل الأنواع الأدبية المكوّنة للقرآن، يجب إذَن تطوير إطارٍ لتحديد أمثلة مفردة للنوعِ الأدبي بداخل النصّ.

يعتبر باختين أنّ كلَّ تواصل مصاغٌ في هيئة كلام محدود، وأن تلك الأشكال من الكلام تتخذ أشكالًا من أنواع أدبية مختلفة من الخطاب. وبناءً على ذلك، فالهدف من وراء تعريف الأنواع القرآنية المفردة يجب أن يستهلّ بتعيين الكلام القرآني المفرد، إذ يمكن تحليل الكلام حينها وفقًا لمحددات (نوعية). والإطار الأدبي المطروح هنا يطرح أربعة عناصر أساسية للكلام القرآني:

١- التماسك الموضوعاتي.

٢- التماسك القواعدي.

٣- ظهور الحدود.

٤- الوظيفة الاجتماعية (النوع).

التماسك الموضوعاتي هو العامل المُحَدِّد الأول للكلام القرآني المفرد، كما يشير إلى علاقة موضوعاتية يمكن إثباتها بين الآيات للكلام المفرد.

فالآيات ليست بحاجة إلى مناقشة موضوع واحد أو حتى موضوعات متشابهة، لكن من الضروري تقديم حجّة تربط بين الآيات المفردة بوصفها كلًّا موضوعاتيًّا أكبر. بهذه الطريقة تكوِّن الآيات في الكلام المفرد وحدة موضوعاتية مفهومة.

وبالمثل، يجب على الكلام أن يُبدي تماسكًا قواعديًّا، أيْ إن الكلام يجب أن يكون ذا معنى؛ فيجب أن يكون للفعل سوابق مثبتة، كما يجب على التراكيب المعقدة (مثل جملة الشرط) أن تتألّف من الشرط وجواب الشرط، وهلمّ جرًّا. مرة أخرى، يمكن تقديم حجج عن التغيرات القواعدية أو التنوّع داخل شكل مفرد من الكلام، ولكن يجب توضيح كيف يمكن للكلام بأكمله أن يظلّ مُدْرَكًا لدى المتلقين.

ربما يكون معيار وجود الحدود هو المعيار الأساس في تأسيس الكلام؛ لأنه يفرق الكلام بوصفه وحدة مستقلّة عن التغيّرات البسيطة الواقعة على موضوع أو أسلوب في القطعة المفردة من الوحي. هذا المفهوم بالتحديد مأخوذ من عمل ميخائيل باختين على نظرية النوع الأدبي، ويشير وجود الحدود إلى استقلالية الشكل الأدبي بوصفه جزءًا من التواصل، وبغضّ النظر عن التشابه الموضوعاتي أو القواعدي مع الأجزاء الأدبية الأخرى، فإنّ النصّ المحدود هو نص ذو بداية ونهاية محددتين. والحدود تشير إلى بداية ونهاية فعل التواصل،

سواء كانت متمثلة في الكلمتين الأولى والأخيرة من رواية، أو فتح وإغلاق الفم عند الإخبار. وعلى ذلك، فمن أجل إثبات الدليل على وجود الحدود في الكلام القرآني يجب إثبات اكتفائه الذاتي بصفته وحدة أدبية.

من المهم عند قراءة نصٍّ من القرآن تذكُّر الطبيعة الأدائية الشفاهية لأغلب الوحي القرآني، وقد كان محمد ينطق بالوحي للمتلقين الذين كان متفاعلًا معهم في الوقت نفسه؛ لهذا السبب، يجب أن تكون آثار الأداء الشفاهي ظاهرة في النصّ، وبالأخصّ محددات بداية الخطاب ونهايته، فإذا كان ممكنًا تحديدُ هذه المحددات داخل النصّ، يمكن إثبات وجود حدود الكلام.

واحد من هذه المحددات يتضح أكثر ما يتضح في الخطاب الندائي في السور المدنية. وإحدى الحجاجات الرئيسة في نقاش هذه الدراسة تتمثّل في أنّ الخطابات الندائية: ***"يا" أو "يا أيها"*** متبوعة بالمنادَى =تعدُّ محدِّدًا نوعيًّا أساسيًّا وشائع الاستخدام في الوحي المدني، مشيرًا إلى بداية التواصل النبوي ومُحدِّدًا المُخَاطَبَ في هذا التواصل. وبينما تمثّل تلك النداءات افتتاحًا لنموذج مستقل من الخطاب، ولكونها أدوات أدبيّة غير بسيطة، فإنّ الإشارة إلى التغيّر في الموضوع أو إعادة توجيه انتباه المتلقين تدعمه أربعة عوامل متشابكة؛ **أولًا**: بالحديث عن القواعد، لا يوجد سوى شاهد قرآني واحد (الآية ٥٣ من سورة

الأحزاب) تبدأ فيه الآية بـ(يا أيها) وتحتوي على فعل أو ضمير بدون الإشارة السابقة إلى الفاعل أو الدالّ عليه. **ثانيًا**: تميل الآية التي تبدأ بـ(يا أيها) لأن تشير إلى محتوى الآيات السابقة. **ثالثًا**: في سياق الطبيعة الشفاهية للوحي القرآني، فهناك احتياج واضح إلى خطاب مباشر على غرار (يا أيها) في بداية الخطاب؛ لكي يحدّد متلقي الوحي ولكي يجذب انتباههم، ولكنه غير ضروري بعد النداء البدئي. **وأخيرًا**: فالمقاطع السردية في القرآن عندما تشير إلى بدء الحديث من طرف إلى آخر، عادةً ما تستخدم أداة النداء متبوعة بمتلقيه.

إذا كان ممكنًا النظرُ إلى النداء كبداية للحديث، فعلى النداء وما يتبعه فورًا أن يوصفَا على أنهما مختلفان تمامًا عن الوحي السابق له. تظهر في النصّ إشارات أخرى إلى وجود الحدود، مثل: مجموعات القَسَم وحروف التوكيد وأساليب ختامية مميِّزة، ولكن بغضّ النظر عن المحدّد المستخدم بالتحديد، تجب مناقشة أن الكلام يوجد بوصفه وحدة أدبية منفصلة عن الوحي الذي يحيط بها.

المعيار الأخير لتعرُّف الكلام هو ارتباطه بوظيفة اجتماعية محدّدة. وهذا بشكلٍ عام يُعَيِّن الكلام بنوعٍ أدبي محدَّد للخطاب discourse، إِذْ إنّ الأنواع الأدبيّة هي انعكاس للمواقف الاجتماعية المُستخدمة فيها. وبمجرد تعرّف

الكلام من حيث الآيات المكوّنة له، تجب مناقشة العلاقة بين تلك الآيات والموقف الاجتماعي وتحديد الشكل النوعي الخاصّ بها.

لذلك، يجب أن يكون التحقيق الأدبي للنوع الأدبي للقرآن قادرًا على تقسيم السورة إلى كلامها المكوَّن على أساس التماسك الموضوعاتي والتماسك القواعدي ووجود حدود الكلام، وتنتهي بربط كلّ كلام بشكلٍ نوعي محدّد. إلى ختام هذا البحث، سوف يُعْرَض تحليلٌ بنيوي ذو شقين للنصّ القرآني، موضحًا كيف يُجْمَع ويُبْنَى النصّ من مجموعات صغيرة من الآيات المترابطة موضوعاتيًّا وقواعديًّا، ممثلةً التواصل النبوي في حينه، أو ما أطلق عليه «الكلام القرآني»، ذلك الكلام القرآني يمثّل وحدات تأليف القرآن (الوحدات التأليفية للقرآن)، وبصورة أشمل هي الأشكال النوعية الرئيسة للقرآن، تلك الأشكال النوعية الرئيسة جُمِعَت فيما بعد مُشَكِّلةً السُّوَر الأكبر، جاعلةً كثيرًا من السور نوعًا ثانويًّا. يُطَبَّق هذا التحليل على سورة آل عمران، وسوف يكون بمثابة دراسةِ حالةٍ لكفاءةِ تحليلٍ بنيوي موضوعاتي وقواعدي مقارن للنوع القرآني في كامل المدونة القرآنية.

تحليل أدبي للنوع القرآني في سورة آل عمران:

تعدُّ سورة آل عمران -وهي ثالث سور القرآن- نموذجًا مثاليًّا للسورة المدنيّة الطويلة؛ فلطولها الذي يصل إلى ٢٠٠ آية، ولأنها -قطعًا- ترجع إلى مرحلة الوحي القرآني المدني[١]، فإنّ سورة آل عمران تُصَنَّف (سورة طويلة) إلى جانب السور الثانية والرابعة والخامسة والثامنة والتاسعة. وتجادل أنجيليكا نويفرت أنّ طوال السور «تتوقف عن أنْ تكون تراكيب مُنَظّمة البناء، بل تبدو نتيجة لعملية جمع لا يمكننا بعدُ إعادة بنائها».[٢] وهنالك أثران مهمّان لملاحظة نويفرت؛ **فأوّلًا**: تقترح تلك الملاحظة أن عملية تجميع السور المدنية الطويلة هي التي تخلق بطبيعتها التراكيب السردية المفككة. **وثانيًا**: إذا كان بمقدور المرء أن يعيد بناء عملية الجمع هذه، فسوف تتبين الأهداف السردية للسور الطويلة.

ومن أجل طرح السؤال حول عملية بناء سورة آل عمران بوصفها سورة مكونة من وحدات كلامية أصغر، فالتحليل الأدبي المُقَدَّم هاهنا يتألّف من (محورين)؛ **أولهما**: تحليل بنيوي موضوعاتي تُعَيَّن فيه السورة بناءً على التغيرات في الموضوع والمحتوى. **وثانيهما**: مقاربة بنيوية قواعدية تُعَيَّن فيها

(١) Ernst, How to Read the Qur'an, pp. 39–41.

(٢) Neuwirth, 'Structural, Linguistic, and Literary Features', p. 111.

السورة بناءً على استخدامها البُنى النحوية والقواعدية. وقد وُجِدَ الكلام القرآني، أو الوحدات التأليفية الرئيسة للتواصل القرآني بمقارنة نتائج هذين النوعين من التحليل البنيوي، فالتحليل البنيوي الموضوعاتي يُثْبِت التماسك الموضوعاتي للكلام، والتحليل البنيوي القواعدي يثبت تماسكه القواعدي واشتماله على الحدود. بمجرد إثبات التماسك الموضوعاتي والتماسك القواعدي ووجود الحدود، سوف يحدّد التحليلُ الأدبيُّ لكلّ كلام نوعَه الأدبيَّ الخاصّ.

يُثبِت التحليل البنيوي الموضوعاتي معيار التماسك الموضوعاتي، ويشتمل على تقسيم السورة إلى سلسلة من مجموعات محدّدة متزايدة من الآيات بناءً على أوجه التشابه في المضمون، بدءًا بتقسيم السورة إلى (وحدات موضوعاتية)، ومقاطع كبيرة نسبيًّا من الآيات المتلازمة المرتبطة بموضوع عام، متبوعين بتقسيم لتلك المقاطع إلى (وحدات موضوعاتية فرعية)، أي: مقاطع فرعية من الآيات المتعلّقة بأوجه محدّدة لهذا الموضوع العام؛ فعلى سبيل المثال: (الآيات: ٦٤-٩٩) من سورة آل عمران، تهتم عمومًا ***بأهل الكتاب***، بينما الوحدات الموضوعاتية الفرعية في الآيات نفسها تهتم بموضوعات محدّدة متعلّقة بأهل الكتاب، كما في الآيات ٩٣-٩٥: س٣ التي تناقش محرّمات الطعام لدى بني إسرائيل.

المحور الثاني لتحليل سورة آل عمران هو المقاربة البنيوية القواعدية. وكما في التحليل البنيوي الموضوعاتي، تنقسم السورة إلى مجموعات صغيرة من الآيات المترابطة فيما بينها، لكن هذه المرّة على أساس ترابط قواعدي أكثر منه موضوعاتي؛ من أجل إثبات كلٍّ من التماسك القواعدي بين الآيات، ووجود حدود مجموعة الآيات الواحدة.

أوّلًا: يجب جمع الآيات المرتبطة ببعضها وفقًا لـ(حالة التبعية dependent case) مع بعضها بعضًا، وتحدث حالة التبعية عندما تبدأ آية معيّنة بحالة نَحْوية -وبالأخص حالة النصب أو الجر وحالة الإضافة- غير مشروطة بالآية نفسها. وعلى هذه الحالة غير المشروطة إذن أن يكون مبعثها آية سابقة، فتشير هكذا إلى العلاقة القواعدية بين الآيتين. يظهر مثال لهذه الحالة في الكلمة الأولى من الآية ١٧ : س٣ (***الصابرين***)، حيث موقعها أوّل كلمة من الآية لا يعطي سببًا واضحًا للجر بلاحقة الجمع المذكر (**ـينَ**). عوضًا عن ذلك، يظهر الدافع القواعدي لهذه الحالة في الآية ١٥، إذ تكون (الصابرين) بدلًا **للعباد**. ولأن ***العباد*** في حالة إضافة، يجب أن تظهر ***الصابرينَ*** كذلك في الحالة نفسها، وبذلك تكون مرتبطة بالآية ١٥ : س٣ ارتباطًا قواعديًّا. أمّا المعيار الثاني للعلاقة القواعدية فهو (التبعية للسابق antecedent dependency). تغطي تبعية السابق مجموعة واسعة من التكوينات النحوية، ولكن كما في حالة التبعية، تتطلّب تلك البُنى نظيرًا في آية سابقة. وأكثر أشكال تبعية السابق شيوعًا تظهر في الفعل ذي

الفاعل الضمني، كما يتضح في افتتاح الآية ٣: س٣، بالفعل (*نَزَّلَ*) الذي لم يُصرّح بفاعله بوضوح إلّا في الآية السابقة. فالفاعل إذا لم يتضح في آيةٍ ولكن اتضح في سابقتها، يمكن اعتبارهما مرتبطتين بعضهما ببعض. كذلك تعمل الضمائر التي لا تتضح لها سوابق مُحدّدة بطريقة مماثلة[١]. تبدأ الآية ٦: س٣ على سبيل المثال، بالضمير **هو**، مشيرًا إلى *الله* في الآية السابقة. المعيار الأساس الثالث للارتباط القواعدي يتمثّل في ظهور حروف عطف النسق في أوّل الآية. فإذا بدأت آيةٌ بحرف عطف مثل: (و أو ف)، مشيرة إلى اتصال قواعدي مع الآية السابقة، يمكن افتراض ارتباط قواعديّ. تعدُّ فاء العطف الواقعة في أوّل الآية ٢٠: س٣ مثالًا شائعًا نسبيًّا على ذلك، وتشير إلى أن الآية التالية هي امتداد لحجة الآية ١٩: س٣، وبخاصة آثام أهل الكتاب. بالإضافة إلى هذا، فإن البُنى القواعدية المعقّدة التي قد تتكرّر في كثير من الآيات، تُثبت ارتباطًا أكيدًا بين

(١) تجدر هنا ملاحظة أن الضمائر ذات الفاعل الضمني تشير دائمًا إلى علاقة قواعدية بين الآيات، ويكمن الاستثناء في ضمير المخاطب للجمع المذكر (...كم)؛ وقد ساد استخدام هذا الضمير لأن القرآن تُلي في الأصل على حضورٍ من المستمعين. في بعض الأحيان لا توجد سابقة صريحة لـ(كم) بسبب طبيعة الخطاب للمستمعين، فهؤلاء المستمعون أنفسهم هم من تشير إليهم اللاحقة (...كم)، مما يجعل شرح هذا الضمير زائدًا عن الحاجة. بناءً على ذلك، لا تعدُّ (...كم) إشارة إلى علاقة قواعدية إلّا إذا صُرِّح بالفاعل بموضع شديد القرب من هذا الضمير. ويشيع حدوث ذلك في صلة الخطاب المباشر الصريح: {يا أيها الذين آمنوا}.

عناصرها من الآيات[١]. تلك المعايير الأربعة تمثل دلالات حتمية على الارتباط القواعدي؛ فبناء الجملة يتطلّب وجود علاقة مع الآية أو الآيات السابقة، ويثبت التماسك القواعدي بين الآيات.

علاوة على التراكيب التي تقضي بالعلاقة مع الآية السابقة، توجد بُنى قواعدية تشير إلى الانفصال عن الآية السابقة، وتشير تلك التراكيب إلى حدودٍ للكلام. تنجلي أشهر هذه البُنى في النداءات المباشرة في بداية الآية، وتُعَدّ جملة: {يا أيها الذين آمنوا} مثالًا على هذا. تظهر هذه الجملة في بداية الآيات وغالبًا ما تشير إلى تغيُّرٍ في الموضوع. وبينما تشير تلك الجملة دائمًا إلى الانفصال عن الآية السابقة[٢]، فهنالك بنى قواعدية أخرى عادة -ولكن ليس بصورة دائمة- ما تشير إلى هذا الانفصال. تتضمن الأمثلة على هذه البنى آياتٍ بادئةً بحروف التوكيد (قد أو لقد)، وظرف الزمان (إذا)[٣]، وتراكيب لغوية معيّنة مثل خواتيم

---

(١) رغم عدم حدوث ذلك في سورة آل عمران، فإن أمثلة سلاسل الأقسام تشمل (سورة النازعات، الآيات من١ إلى ٥)، و(سورة البروج، الآيات من ١ إلى ٣)، و(سورة الفجر، الآية ١٤).

(٢) انظر المناقشة السابقة لأداة النداء (يا).

(٣) يُرتأى في بعض الأحيان أن تلك الأدوات تشير إلى افتقاد العلاقة اللغوية مع الآية السابقة، وذلك راجع إلى سببين؛ **أولهما**: أن تلك الأدوات مُشدِّدة ومؤكِّدة وكثيرًا ما تستخدم للمباشرة بالتصريحات. **وثانيًا**: لأنها تظهر ككلمة افتتاحية لبعض السور المدنية، من المنطقي أن السور المدنية هي إمّا مجموعات من الكلام، مثل سورة آل عمران، أو أنها ذاتها وحدات تأليفية، وفي كلتا الحالتين، =

الآيات بإشارة إلى صفات الله (مؤسّسة لانفصال قواعدي عن الآية التالية، وبالتالي مؤسّسة لحدٍّ ختاميّ للكلام). ويجب أن يكون هدفًا لمزيدٍ من التحليلات الأدبية للنوع القرآني =تحديدُ الأساليب القواعدية الأمثل لافتتاح الخطاب واختتامه.

إن المقاربات البنيوية الموضوعاتية والقواعدية لسورة آل عمران تسفر عن أهم الاستنتاجات، فقط عندما تُعْرَض نتائجها معًا. وكما ناقشنا، تسفر عن مقارنة نتائج تلك التحليلات، المكونات الكلامية للسورة، أو التواصل النبوي الأصلي مع المتلقين في وقته. ويظهر الكلام حيث تتوافق البنى الموضوعاتية والقواعدية للسورة مع بعضها بعضًا وتُظْهِر حدودها. وإذا أظهرت مجموعة من الآيات تماسكًا موضوعاتيًّا وقواعديًّا جنبًا إلى جنبٍ مع وجود الحدود، فإنها تُظهِر كلامًا قرآنيًّا واحدًا.

إنّ البناء القواعدي لسورة آل عمران يتّفق على نحوٍ واسعٍ وأخّاذ مع البناء الموضوعاتي. من اللازم تذكُّر أنّ النبي لم يتلُ القرآن بصورته الكاملة لجمعٍ

=

فإن أول كلمة في السورة هي بداية قطعة الوحي الأصلية والمبنية عن قصد. إذًا، يمكن أن تكون الكلمة الأولى لأيّ سورة مدنية هي الكلمة الأولى لوحدة الوحي، لذلك، قد تبدأ هذه الأدوات أيّ (كلام) ويتم اعتبارها على حسب لذلك.

مستمع، بل تلَى أجزاء صغيرة من الوحي القرآني لجمع مستمع، جُمعت لاحقًا للصورة المكتوبة من القرآن[١]. ونظرًا لمدة نُبُوّة محمد ثلاثة وعشرين عامًا المسلَّم بها على نحو تقليدي، فإن الشواهد الصغيرة من الوحي، المُؤلَّف كلّ منها من بضع آيات، تبدو السبيل المحتمل الوحيد لتمديد الوحي القرآني على مدّة زمنية طويلة كهذه. وهكذا فإنّ كلّ قطعة من الوحي المروي سوف توجد مستقلّة بشكلها عن غيرها من مقاطع الوحي؛ بمعنى أدقّ، فبطبيعة سردها وحدة قائمة بذاتها، فيما يبدو عادةً استجابة لأحداث بعينها أو جدالات قائمة في المجتمع المسلم الأول، لن تكون مرتبطة ارتباطًا موضوعاتيًّا[٢] دقيقًا أو أكثر من ذلك، ارتباطًا قواعديًّا مع الوحي المسرود قبلها. وما أن يتم جمع ذلك الكلام القرآني المتباين لتشكيلِ المدونة القرآنية الكاملة، حتى تُفْقَد طبائعه الأصلية والمستقلّة، وتُفْتَرَض علاقة موضوعاتية وقواعدية دقيقة بينه. وبالتالي إذا عزز البناءُ القواعدي البناءَ الموضوعاتي في موضعٍ معطى من سورة آل عمران، وأُثْبِت وجود حدود آياته المكونة، فإنّ الاكتفاء الذاتي للكلام المبرهن عليه بهذا الارتباط، سيكون موافقًا لواقع الطريقة التي كُشف بها عن القرآن في

(١) لمزيد من المعلومات حول شفاهية القرآن، راجع: "'Orality'" لغراهام.

(٢) لا أعني بذلك أن الوحي لا يمكنه الاعتماد على موضوعات أو خطابات مؤسّسة من قبل.

المقام الأول في وحدات صغيرة مستقلة عن طوال السور. تلك هي النماذج الأصلية للوحي القرآني، وبالتالي الأشكال النوعية الأدبية الأصلية للقرآن.

من الممكن بطبيعة الحال ألّا تبدي كلّ آية مضمنة في كلام ارتباطًا موضوعاتيًّا وقواعديًّا دقيقًا مع الآيات السابقة. وبينما يعدُّ ذلك إلى حدٍّ بعيد استثناءً وليس قاعدة، ففي الحالة التي تختلف فيها البُنى الموضوعاتية والقواعدية، أو التي لا يتضح فيها الترابط أو الانفصال بين الآيات، يُنظر إلى موضوع وتركيب الآيات معًا لاتخاذ القرار الأفضل فيما يتعلق بعلاقتهما أو عدم وجودها.

خطاطة التحليلات البنيوية الموضوعاتية والقواعدية لسورة آل عمران:

يمكن تقسيم سورة آل عمران إلى خمس وحدات موضوعاتية، و٣٤ وحدة كلامية:

أ) الآيات ١-٣٢: قدرة الله وعلمه غير المحدودين (فاتحة):

١. الآيات ١-٤: تنزيلات الوحي السابقة (عقيدة).

٢. الآيات ٥-٩: توجيهات تأويلية «للكتاب» (تعليق ديني سياسي).

٣. الآيات ١٠-١٣: العقاب الأخروي للكافرين (تعليق ديني سياسي).

٤. الآيات ١٤-١٨: الثواب الدنيوي والأخروي (تعليق ديني سياسي).

٥. الآيات ١٩-٢٠: الدين عند الله الإسلام (تعليق ديني سياسي).

٦. الآيات ٢١-٢٢: العقاب الأخروي لمن يقتلون النبيين (تعليق ديني سياسي).

٧. الآيات ٢٣-٢٧: الآخرة وأولئك الذين أُوتوا نصيبًا من الكتاب، والقدرة الكلية لله (تعليق ديني سياسي).

٨. الآيات ٢٨-٣٢: علاقة المؤمنين بالكافرين، وعلم الله الكلي (تعليق ديني سياسي، وربما نوعان من الكلام).

ب) الآيات ٣٣-٦٣: قصة آل عمران (تفسير سردي):

١. الآيات ٣٣-٥٨: قصة آل عمران، بالتركيز على مريم وعيسى (سردية نبوية).

٢. الآيات ٥٩-٦٣: إنسانية المسيح (تعليق ديني سياسي).

ج) الآيات ٦٤- ٩٩: أهل الكتاب (أفرودة):

١. الآية ٦٤: المعتقدات المشتركة بين أهل الكتاب والمؤمنين (موعظة، أو جزء من الهيكل التوكيدي السابق).

٢. الآيات ٦٥-٦٩: إبراهيم (موعظة).

٣. الآيات ٧٠-٧٨: طبيعة نفاق أهل الكتاب (إمّا الآية ٧٠ أو الآية ٧١ قد تكون إضافة، أو... وبشكل عام الوحدة الكلامية...).

٤. الآيات ٧٩-٨٥: مسؤوليات النبوّة والإسلام (تعليق ديني سياسي).

٥. الآيات ٨٦-٩١: العواقب الأخروية للذين كفروا من بعد إيمانهم (تعليق ديني سياسي).

٦. الآية ٩٢: نوال البر بالإنفاق مما تحبون (إمّا إضافة وإمّا الآية الأخيرة للوحدة الكلامية السابقة، وتعليق ديني سياسي).

٧. الآيات ٩٣-٩٤: محرمات الطعام لدى بني إسرائيل (تعليق ديني سياسي).

٨. الآيات ٩٥-٩٩: إبراهيم وبيت بكة (تعليق ديني سياسي، مع احتمال أن تكون الآية الأخيرة مضافة، كما قد تكون الآية ٩٥ تابعة لنهاية الوحدة الكلامية السابقة).

د) الآيات ١٠٠-١٨٠: المؤمنون (أفرودة):

١. الآيات ١٠٠-١٠١: التأثير السلبي لأهل الكتاب على إيمان المؤمنين (موعظة).

٢. الآيات ١٠٢-١٠٩: أمة متحدة من المؤمنين (موعظة).

٣. الآيات ١١٠-١١٧: المؤمنون وأنواع أهل الكتاب (تعليق ديني سياسي، وقد تكون الآيات ١١٦-١١٧ وحدة كلامية مضافة).

٤. الآيات ١١٨-١٢٩: اتخاذ المؤمنين من دونهم بطانة، ومعركة بدر (موعظة).

٥. الآيات ١٣٠-١٣٦: السلوك العام للمؤمنين (موعظة، وقد تكون مرتبطة بالوحدة الكلامية التالية).

٦. الآيات ١٣٧-١٤٨: القتال بوصفه اختبارًا من الله للمؤمنين (موعظة).

٧. الآيات ١٤٩-١٥٥: وصف معركة معيّنة بين المؤمنين والكافرين (موعظة).

٨. الآيات ١٥٦-١٦٣: الموت في المعركة/ سبيل الله/ الشهادة (موعظة).

٩. الآيات ١٦٤-١٧١: هزيمة المؤمنين في المعركة (تعليق ديني سياسي).

١٠. الآيات ١٧٢-١٧٨: عن المؤمنين في المعركة (تعليق ديني سياسي).

١١. الآيات ١٧٩-١٨٠: تخطيط الله للمؤمنين (تعليق ديني سياسي).

هـ) الآيات ١٨١-٢٠٠: قدرة الله وعلمه الكليّان (خاتمة):

١. الآيات ١٨١-١٨٤: العقاب الأخروي لمن يقتلون النبيين (تعليق ديني سياسي).

٢. الآيات ١٨٥-١٨٩: الابتلاءات الدنيوية ويوم الحساب (تعليق ديني سياسي).

٣. الآيات ١٩٠-١٩٥: الآيات/ الدلائل على وجود الله في الطبيعة، والأخرويات (تعليق ديني سياسي).

٤. الآيات ١٩٦-١٩٩: العقاب والثواب الأخرويان (تعليق ديني سياسي).

٥. الآية ٢٠٠: صبر المؤمنين بالله (إضافة، تعليق).

تنقسم الخطاطة البنيوية أعلاه للسورة ٣ إلى خمس وحدات موضوعاتية و٣٤ وحدة كلامية، مميزة فيه الأشكال النوعية الأدبية المحدّدة لكلّ وحدة موضوعاتية وكلامية. تظهر سورة آل عمران بوصفها بناءً أدبيًّا على مستوى النوع الأدبي من الدرجة الثالثة [فوق ثانوي]، أيْ إنّ السورة تتكوّن من الأنواع الرئيسة (الكلام القرآني) التي تكوِّن بدورها الأنواع الثانوية (الوحدات الموضوعاتية) المكوِّنة في النهاية نوعًا من الدرجة الثالثة [فوق ثانوي] للسورة[١]. وإجمالًا، يمكن تعيين تسعة أنواع أدبية في النصّ؛ بدءًا بالأنواع الأدبية الرئيسة. وكما ناقشنا سابقًا، يجب تعيين الكلام القرآني وفقًا لأربعة عوامل، هي: التماسك الموضوعاتي، والتماسك القواعدي، ووجود الحدود، والوظيفة الاجتماعية (أو النوع الأدبي).

(١) حسب باختين، فلا يوجد سوى نوع أدبي رئيس ونوع أدبي ثانوي، وأيّ نمط نوعي يدمج بين أنماط نوعية متعددة إلى نمط مستقل جديد، إنما هو نوع ثانوي. ومن هذا المنطلق، تعدُّ سورة آل عمران نوعًا ثانويًّا. وهي مصنَّفة في هذا البحث نوعًا أدبيًّا (فوق ثانوي) فقط للتأكيد على أنها مؤلَّفة من عدد من الأنواع الثانوية (وحدات موضوعاتية).

يكشف تحليل الوحدات الكلامية القرآنية الأربع والثلاثين لسورة آل عمران عن أربعة أشكال من الأنواع الأدبية الرئيسة، هي: العقيدة، والتعليق الديني السياسي، والسردية النبوية، والوعظ. ويستخدم كلّ نوع أدبي من هذه الأنواع الأربعة أنماطًا موضوعاتية وقواعدية مستقلّة، وترِد نظرة عامة على كلّ نوع أدبي أدناه.

الأنواع الأدبية الرئيسة:

تشكِّل العقيدة جزءًا من وحدة كلامية قرآنية واحدة من سورة آل عمران، ولكنها برغم ذلك تعدُّ نوعًا أدبيًّا مستقلًّا. والعقيدة بيان حقيقي للإيمان الذي لا يحمل أيّ إشارات صريحة إلى الأحداث المعاصرة لنزوله. يمكن للعقيدة أن تمتد عبر كثير من الآيات، ولكنها في العموم ليست تركيبًا طويلًا.

ويعدُّ التعليق الديني السياسي إلى حدٍّ كبيرٍ أكثر الأنواع استخدامًا في السورة ٣، إذ يشكِّل عشرين وحدة كلامية من أصل أربع وثلاثين. والتعليق الديني السياسي هو نوع أدبي يتميّز بتفصيلِ حدثٍ معاصر أو تصريح/ بيان إلهي متبوع باستجابة نبوية تعلّق على ذلك الموقف. وبالتحديد، فإنّ بنية هذه الاستجابة للحدث عادة ما تتضمن ما أدعوه بالبنية القواعدية *لقل* التوكيدية، حيث يفتتح الوحدةَ الكلامية حرفٌ توكيدي، مثل: إنَّ أو لقد، متبوعًا بعرض لحدثٍ أو موقفٍ، وتكون الاستجابة لهذا الحدث أو الموقف بادئةً بأمر المخاطَب *قل*. ومن بين العشرين مثالًا على التعليق الديني السياسي في سورة آل عمران، يستخدم أحد عشر منهم (قل) استجابةً لحدث أو موقف، وسبع من هذه الوحدات الكلامية تبدأ بأداة توكيدية.

تعدُّ السردية النبوية النوعَ الأدبي الثالث المشهود في سورة آل عمران. والسردية النبوية هي تذكير سردي عن الأنبياء الكتابيِّين أو غير الكتابيين، ولا

تحتوي على إحالات صريحة إلى أحداث معاصرة لتنزيلها، كما هو الحال في العقيدة. والسردية محدودة بمقدمة مختصرة وخاتمة، كلّ منهما مكوَّن عادةً من آية أو اثنتين. ومن ناحية قواعدية، فغالبًا ما تستهلّ الحلقات السردية الجديدة في التقدم السردي بـ(إذ).

الوعظ هو النوع الأدبي الرابع والأخير: يتسم الوعظ بالتفاعل المباشر بين الرسول القرآني والمتلقِّين، بمعنى أنه غالبًا ما تظهر الصيغة الندائية: (يا أيها...)، واستخدام ممتد لصيغ الجمع المخاطَب. ومن جهة موضوعاتية، تميل المواعظ إلى أن تكون استجابات لأحداث معاصرة مارسها المجتمع القرآني، ولكن عادة ما تُهْمَل هذه الأحداث. ويعتمد استخدام الصيغ البلاغية المختلفة على الجمهور متلقي الخطاب؛ فعند مخاطبة المؤمنين تُستخدم الأفعال في صيغة الأمر بكثرة في محاولة لتوجيه أفعال المجتمع، أمّا عند مخاطبة الكُفّار ينخفض استخدام صيغة الأمر وتستبدل غالبًا بأسئلة بلاغية. وعلى عكس التعليق الديني السياسي، يوجّه الوعظ المخاطب الذي يحاوره مباشرة.

الأنواع الأدبية الثانوية:

تُجمَع تلك الأنواع الرئيسة الأربعة لكي تشكّل أنواعًا ثانوية أكثر تعقيدًا في سورة آل عمران. وتشتمل السورة على خمسة أنواع أدبية ثانوية مقابلة للوحدات الموضوعاتية الخمس لمخططها البنيوي؛ وهنالك أربعة أصناف مختلفة من الأنواع الأدبية مشاهدة في الحالات الخمس، هي: الأفرودة والتفاسير السردية والفاتحة والخاتمة. تظهر الأفرودة مرتين في سورة آل عمران، والأفرودة هي خطاب موسّع مرتكز على موضوع عام واحد[1]. قد يختلف المحتوى الخاصّ بالأجزاء المختلفة من الأفرودة الواحدة، فمثلًا: تتعلّق الأفرودتان الموجودتان في سورة آل عمران بأهل الكتاب ومجتمع المؤمنين تباعًا، ولأن النوع الأدبي الثانوي يُعَرَّف بموضوعه، يمكن استخدام كثير من أصناف الأنواع الأدبية الأولية بداخله.

ثانيًا؛ تعرِض سورة آل عمران النوع الأدبي للتفاسير السردية، وهي دمج لواحدٍ من الأنواع السردية الرئيسة مع آخر يعلق مباشرة على مضمون السرد. تقدم السورة سردًا حول آل عمران (الآيات ٣٣-٥٨)، متبوعًا مباشرةً بتعليق ديني سياسي (الآيات ٥٩- ٦٣) يناقش إنسانية المسيح، والذي هو نفسه سليل

(١) لا يعني مصطلح (أفرودة) بالضرورة وجوب أن يكون قد نُظِم كتابةً، لكنه يؤكد فقط على أن الخطاب يتمحور حول فكرة محورية.

لعِمران. ذانك النوعان الرئيسان المختلفان يعملان مع بعضهما بعضًا لتشكيل نوع أدبي ثانوي تُسرد فيه القصة ثم يُعلَّق عليها بعد ذلك.

الفاتحة هي ثالث الأنواع الأدبية الثانوية: والفاتحة نوع أدبي تقديمي من الممكن تمييزه بالحروف المقطعة، وإشاراتٍ إلى ***الكتاب***، وتلميحات أخروية، وتأكيد على قدرة الله وعلمه الكليَّين. ويستخدم مصطلح (فاتحة) في مقابل (المقدمة)؛ لملاحظة الوضع التقديمي لهذا النوع الأدبي في التكوينات الأكبر، والذي يؤكد على الانفصال عن النصّ التالي. وتقابل الخاتمةُ الفاتحةَ بشكلٍ مِرآوي؛ فالخاتمة هي نوع ملخِّص يشبه الفاتحة كثيرًا، فتعيد النقاش إلى قدرة الله وعلمه الكليين لكي يشير إلى ختام النصّ. وبهذا تكون الفاتحة مرتبطة بالخاتمة، وإذا استطاع المرء أن يحدّد إحداهما في النصّ، فمن المحتمل أن يكون قادرًا على تحديد الأخرى.

الأنواع الأدبية من الدرجة الثالثة:

إن المستوى الثالث للنوع الأدبي في سورة آل عمران هو السورة نفسها، إِذْ تقوم الأنواع الأولية بتشكيل الأنواع الثانوية، التي بدورها تشكّل النصّ. تظهر سورة آل عمران كأطروحة، بوصفها تشكيل أدبي من الدرجة الثالثة، والأطروحة هي مناقشة معقّدة لمجموعة من الموضوعات الكاملة بفاتحة وخاتمة، والتي يوحي هيكلها المعقّد وطولها بأنها عملية تحريرية شاملة. وفي حالة سورة آل عمران، فبين أيدينا أطروحة مؤلَّفة من خمسة أقسام فرعية، هي: مناقشة حول سردية آل عمران، ومناقشة حول أهل الكتاب ومجتمع المؤمنين، مشمولين بين فاتحة وخاتمة. رغم أني قد أجازف بوصف هذه الأطروحة أنها سبر لأغوار العلاقة بين المؤمنين وأهل الكتاب في وقت الصراع، إلّا أن الخطوط العريضة لها غامضة.

الوحدات الموضوعاتية في سورة آل عمران:

بعد إتمام استعراض عام حول أشكال الأنواع الأدبية الموجودة في سورة آل عمران، يصبح تحليل كلّ وحدة موضوعاتية منها أمرًا مناسبًا.

الوحدة الموضوعاتية الأولى:

أ) الآيات ١-٣٢: قدرة الله وعلمه الكليّان (فاتحة):

١. الآيات ١-٤: تنزيلات الوحي الإلهي السابقة (عقيدة).

٢. الآيات ٥-٩: توجيهات تفسيرية «للكتاب» (تعليق ديني سياسي).

٣. الآيات ١٠-١٣: العقاب الأخروي للكافرين (تعليق ديني سياسي).

٤. الآيات ١٤-١٨: الثواب الدنيوي والأخروي (تعليق ديني سياسي).

٥. الآيات ١٩-٢٠: الدين عند الله الإسلام (تعليق ديني سياسي).

٦. الآيات ٢١-٢٢: العقاب الأخروي لمن يقتلون الأنبياء (تعليق ديني سياسي).

٧. الآيات ٢٣-٢٧: الإيمان بالآخرة والذين أوتوا نصيبًا من الكتاب (تعليق ديني سياسي).

٨. الآيات ٢٨-٣٢: علاقة المؤمنين بالكفار، والعلم الكلي لله (تعليق ديني سياسي، وربما يكون من وحدتين كلاميتين).

تتألف الوحدة الموضوعاتية الأولى لسورة آل عمران من ثماني وحدات كلامية، كلّها تناقش منظورًا لقدرة الله وعلمه الكليّين أو تجليهما، فتشتمل على سبعة تعليقات دينية سياسية وإشارة عقدية واحدة. وبينما يمكن العثور على دعوات عامّة إلى علم الله وقدرته الكليّين في جميع الوحدات الكلامية، إلّا أن الإشارات إلى تجلي أثر هذه الصفات (الوحي الإلهي والأخرويات) هي الأكثر شيوعًا. ويشمل الوحي الإلهي كلًّا من قدرة الله وعلمه الكليّين؛ إذ تمثّل عملية الوحي قدرته، ويمثّل علمَه التوجيهاتُ المضمّنة في هذا الوحي. كذلك تساعد

مناقشة الأخرويات على تأكيد قدرة الله الكلية بمقدرته على إحداث يوم القيامة، وتأكيد علمه الكلي في دوره كالإله الديّان. تلك الوحدات الكلامية الثماني جُمعت معًا لتشكيل فاتحة أو مدخل إلى أطروحة شاملة.

الوحدة الموضوعاتية الثانية:

ب) الآيات ٣٣-٦٣: قصة آل عمران (تفسير سردي):

١. الآيات ٣٣-٥٨: قصة آل عمران، بالتركيز على مريم وعيسى (سردية نبوية).

٢. الآيات ٥٩-٦٣: إنسانية المسيح (تعليق ديني سياسي).

تتكون الوحدة الموضوعاتية الثانية من مزيج بين وحدتين كلاميتين مستقلتين؛ **أولاهما**: سردية نبوية شاملة حول آل عمران، مريم وعيسى على وجه التحديد. **وثانيتهما**: الجزم بإنسانية المسيح المعلَن عنها على صيغة تعليق ديني سياسي. ويتّضح أنّ تينك الوحدتين الكلاميتين جُمعتا معًا على أساس التشابه الموضوعاتي، ولكنهما تعرضان اختلافات في البنية السردية. وعلى نقيض الآيات ٣٣-٥٨، فإنّ الآيات ٥٩-٦٣ لا تعرض صيغة سردية ولكنها تجزم بإنسانية المسيح في صيغة تصريحية شائعة في الوحدات الكلامية الأخرى. ويتضح بالتساوي أنّ تينك الوحدتين توفّران فاصلًا عن تلك الوحدات الكلامية الموجودة في الوحدة الموضوعاتية الأولى، فهنالك قليل من التأكيدات على

قدرة الله وعلمه الكليّين -إن وجدت- في هذه الوحدة الموضوعاتية الثانية. وبذلك تكون الوحدة الموضوعاتية الثانية مزيجًا من وحدتين كلاميتين على أساس اهتمامهما المشترك بآل عمران وعيسى على وجه الخصوص، وتكوينها بوصفه سردية نبويّة متبوعة بتعليق ديني سياسي ذي صلة، يثبت أن النوع الأدبي لهذه الوحدة الموضوعاتية تفسير سردي.

الوحدة الموضوعاتية الثالثة:

ج) الآيات ٦٤ - ٩٩: أهل الكتاب (أفرودة):

١. الآية ٦٤: المعتقدات المشتركة بين أهل الكتاب والمؤمنين (موعظة، أو جزء من الهيكل التوكيدي السابق).

٢. الآيات ٦٥-٦٩: إبراهيم (موعظة).

٣. الآيات ٧٠-٧٨: طبيعة نفاق أهل الكتاب (إمّا الآية ٧٠ أو الآية ٧١ قد تكون إضافة، أو... وبشكل عام الوحدة الكلامية...).

٤. الآيات ٧٩-٨٥: النبوّة والإسلام (تعليق ديني سياسي).

٥. الآيات ٨٦-٩١: العواقب الأخروية للذين كفروا من بعد إيمانهم (تعليق ديني سياسي).

٦. الآية ٩٢: نوال البر بالإنفاق مما تحبون (إمّا إضافة وإمّا الآية الأخيرة للوحدة الكلامية السابقة، وتعليق ديني سياسي).

٧. الآيات ٩٣-٩٤: محرمات الطعام لدى بني إسرائيل (تعليق ديني سياسي).

٨. الآيات ٩٥-٩٩: إبراهيم وبيت بكة (تعليق ديني سياسي، مع احتمال أن تكون الآية الأخيرة مضافة، كما قد تكون الآية ٩٥ تابعة لنهاية الوحدة الكلامية السابقة).

تتألف الوحدة الموضوعاتية الثالثة لسورة آل عمران من ثماني وحدات كلاميّة مستقلّة، تتصل جميعًا بأهل الكتاب، وهنالك أربعة تعليقات دينية سياسية، وثلاث صيغ وعظية واحتمال لآية إضافية. تلك الوحدات الكلامية إلى أهل الكتاب التي لا تشير إلى أهل الكتاب مباشرة، تناقش موضوعاتٍ مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بما يخص أهل الكتاب، فعلى سبيل المثال: تناقش الوحدة الكلامية الرابعة المتمثلة في الآيات ٧٩-٨٥ النبوّة ودورها في الإسلام. وتعلن في الآية ٨٤: {**آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ**}، وهي عقيدة يتردّد صداها بين أهل الكتاب؛ إِذْ تتضمن الشخصيات المحورية في كلّ من اليهودية والمسيحية. بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن نجد النداء الصريح

والمباشر لأهل الكتاب: (**يا أهل الكتاب**) على طوال الوحدة الموضوعاتية الثالثة، وهي تمثّل الموضع الوحيد لهذا النداء في السورة. تلك الوحدات الكلامية الثماني تُجْمَع مشكِّلة النوع القرآني الأدبي (الأفرودة)، وهي مجموعة من الأنواع الأدبية الرئيسة التي تختلف في خصوصياتها ولكن تُعنى بموضوع مركزي.

الوحدة الموضوعاتية الرابعة:

د) الآيات ١٠٠-١٨٠: المؤمنون (أفرودة):

١. الآيات ١٠٠-١٠١: التأثير السلبي لأهل الكتاب على إيمان المؤمنين (موعظة).

٢. الآيات ١٠٢-١٠٩: أمة متحدة من المؤمنين (موعظة).

٣. الآيات ١١٠-١١٧: المؤمنون وأنواع أهل الكتاب (تعليق ديني سياسي، وقد تكون الآيات ١١٦-١١٧ وحدة كلامية مضافة).

٤. الآيات ١١٨-١٢٩: محاباة المؤمنين لمن هم دونهم، ومعركة بدر (موعظة).

٥. الآيات ١٣٠-١٣٦: السلوك العام للمؤمنين (موعظة، وقد تكون مرتبطة بالوحدة الكلامية التالية).

٦. الآيات ١٣٧-١٤٨: القتال بصفته اختبارًا من الله للمؤمنين (موعظة).

٧. الآيات ١٤٩-١٥٥: وصف معركة معيّنة بين المؤمنين والكافرين (موعظة).

٨. الآيات ١٥٦-١٦٣: الموت في المعركة/ سبيل الله/ الشهادة (موعظة).

٩. الآيات ١٦٤-١٧١: هزيمة المؤمنين في المعركة (تعليق ديني سياسي).

١٠. الآيات ١٧٢-١٧٨: عن المؤمنين في المعركة (تعليق ديني سياسي).

١١. الآيات ١٧٩-١٨٠: تخطيط الله للمؤمنين (تعليق ديني سياسي).

تتألّف الوحدة الموضوعاتية الرابعة من سورة آل عمران من إحدى عشرة وحدة كلامية تُعنى جميعًا بسلوك المجتمع المؤمن؛ وتتكوّن من سبع صيغ وعظية وأربعة تعليقات دينية سياسية. تقدّم الوحدة الكلامية الأولى تحوّلًا عن الوحدة الموضوعاتية الثالثة المتمركزة حول (أهل الكتاب). هذا بالإضافة إلى أنّ الوحدة الكلامية الختامية للوحدة الموضوعاتية الرابعة تبدأ التحوّل عن التركيز الموضوعاتي على المؤمنين، للتركيز الموضوعاتي على قدرة الله وعلمه الكليّين في الوحدة الخامسة. وتستخدم الوحدات الكلامية في الوحدة

الموضوعاتية الرابعة النداء المباشر للمؤمنين (**يا أيها الذين آمنوا**)، كما كان الحال في الوحدة الثالثة. يوجد هذا النداء الاستهلالي في ستة مواضع كلامية من الوحدة الموضوعاتية الرابعة، ولا يوجد خارجها إلّا في الآية ٢٠٠. وبذلك تكون الوحدة الموضوعاتية الرابعة أفرودة أخرى، متمركزة حول مناقشة المجتمع المؤمن في تلك الحال.

الوحدة الموضوعاتية الخامسة:

هـ) الآيات ١٨١-٢٠٠: قدرة الله وعلمه الكليّان (خاتمة):

١. الآيات ١٨١-١٨٤: العقاب الأخروي لمن يقتلون النبيين (تعليق ديني سياسي).

٢. الآيات ١٨٥-١٨٩: الابتلاءات الدنيوية ويوم الحساب (تعليق ديني سياسي).

٣. الآيات ١٩٠- ١٩٥: الآيات/ الدلائل على وجود الله في الطبيعة، والأخرويات (تعليق ديني سياسي).

٤. الآيات ١٩٦-١٩٩: العقاب والثواب الأخرويان (تعليق ديني سياسي).

٥. الآية ٢٠٠: صبر المؤمنين بالله (إضافة، تعليق).

تتألّف الوحدة الموضوعاتية الخامسة من دمج بين خمس وحدات كلامية، يؤكّد كلّ منها على جانب من جوانب قدرة الله وعلمه الكليين؛ فتتألّف من أربعة تعليقات دينية سياسية واحتمال وجود آية إضافية. بشكلٍ عام، يتشابه المضمون الموضوعاتي للوحدة الخامسة مع محتوى الوحدة الأولى؛ إذ تستخدم جوانب أخروية لتسلّط الضوء على قدرة الله وعلمه الكليين، وتصرح أن تلك السمات هي دليل على خلقه. وتعتبر الآية ٢٠٠ الوحدة الكلامية الوحيدة التي لا تتلاءم بسلاسة مع هذا القالب. والوحدة الكلامية الخامسة تبعث على تذكر الصيغ الوعظية الموجودة في الوحدة الموضوعاتية الرابعة؛ لخطابها المباشر للمؤمنين ومناقشة سلوكهم العام. والوحدة الموضوعاتية الخامسة والأخيرة تنهي السورة بكونها خاتمة تعود بالأطروحة إلى إدراك قدرة الله وعلمه الكليين، وبذلك تكون انعكاسًا لفاتحة السورة.

الاستنتاج:

إنّ التحليل البنيوي الموضوعاتي والقواعدي المقارن لسورة آل عمران قد أسفر عن ٣٤ وحدة كلامية مستقلّة وتسعة أنواع أدبية مختلفة. ويشير الاتفاق الكبير بين البنى الموضوعاتية والتركيبية للسورة إلى أن وحداتها الكلامية تميل إلى التركيز على موضوع واحد، إِذْ تشتغل كلّ واحدة منها بجانب معين من الموضوع العام للوحدة الموضوعاتية التي تتضمنها. وبينما يمكن الجدال بشأن الحدود الدقيقة لبعض الوحدات الكلامية، فإنّ الاتفاق الكبير بين البنى الموضوعاتية والقواعدية للسورة الذي قدّمه تحليل سورة آل عمران يوضح أن السورة نتاج لمزيج من الوحدات الكلامية المتضمنة في خمس وحدات موضوعاتية أكبر، وجُمِعَت تلك الوحدات الموضوعاتية في سورة واحدة. وبالنسبة لسورة آل عمران، وربما السور المدنية الطويلة كلّها، فإن (الوحدة الأدبية formal unit التي اختارها محمد لنبوّته)[١] ليست السورة كما جادلت أنجيليكا نويفرت في السور المكية، بل كانت (الكلام القرآني).

بشكلٍ عام، يتوافق ذلك الاستنتاج مع الطبيعة الشفاهية للوحي القرآني. ولأن التنزيلات القرآنية كانت في أول الأمر بيانات شفاهية موجهة لجمهور مستمع، فإن فكرة الوحدات الكلامية الموجزة والمقفاة سهّلت حفظ ونشر

(١) 'Alternative Accounts', p. 63

ذلك الوحي. وللسور -إذا كانت مؤلَّفة من مجموعات أطول من الوحدات الكلامية- منفعة هامشية في هذه المرحلة المبدئية للوحي القرآني، فالسورة لن تكون ضرورية قبل ترتيب وحداتها الكلامية[١]. وليس واضحًا مَن الذي أشرف على تجميعها، ومتى أو لماذا جُمعت، كما لا يمكن استبعاد المشاركة النبويّة في هذا الإنتاج والتنظيم الأدبي للسور و/ أو للمدونة القرآنية الكاملة.

رغم ذلك، يتضح أن سورة آل عمران هي وحدة تحريرية، وبالتالي استجابة لشواغل (دينية وتشريعية...إلخ) أثيرت وقت جمعها، وليست بالضرورة شواغل الوحدات الكلامية المفردة نفسها[٢]. وتحوِّلُ عملية الجمع معنى

(١) هذه الحجة لصالح عملية متعدّدة المستويات لجمع القرآن لا تميل بأيّ شكل من الأشكال إلى تقويض الدلالة الأدبية أو اللاهوتية لأيٍّ من مستويات النوع القرآني الثلاثة. بدلًا من ذلك، فإن تقسيم المدونة القرآنية إلى أشكال نوعية أصغر يسمح بإدراك أفضل للإنجاز القرآني الأدبي المعقد. والسورة وكلامها القرآني هما مركز هذه الدراسة، ولكنها مجرد خطوة مبدئية، فلا يجب أن يؤخذ نقص الاشتغال بكامل المدونة القرآنية (المصحف) إلّا شاهدًا على تعقيده الأدبي وحداثة النقد النوعي للقرآن.

(٢) ننبّه هاهنا أن مثل هذه الاستنتاجات تتوافق مع الطرح الاستشراقي عمومًا، وأن القرآن ليس وحيًا سماويًّا، وأنه فعلٌ بشري، وأن القرآن جرى تحريره من البشر... إلخ تلك المزاعم المشكلة، والتي لا تنفك تفهم القرآن وتاريخه في إطار تاريخ الكتاب المقدّس، رغم التباين الظاهر جدًّا بينهما؛ فالكتاب المقدّس هو ما مَرّ بمراحل في كتابته وتحريره كما هو معلوم، وأمّا القرآن فلم يكن تاريخ جمعه وكتابته على هذا النحو على الإطلاق؛ إذ الكتابة والجمع كانت لنص موجود فعليًّا، وجرت بشكل =

الوحدة الكلامية الواحدة (نوع أوّلي) بربطها بوحدات كلامية أخرى، وتعيينها كجزء أصغر من كلٍّ أكبر هو الوحدة الموضوعاتية (نوع ثانوي) وأخيرًا السورة (نوع فوق ثانوي)؛ لذلك فإنّ الدرس النقدي لسورة آل عمران وكلّ السور المركّبة، يجب أن ينقسم إلى قسمين؛ أولًا: دراسة الوحدات الكلامية مفردة، ثم دراسة السورة. وفقط عندما تُدرس تلك الوحدات الكلامية دراسة سانكرونية بوصفها صيغًا نوعية يكون بإمكاننا ترتيب النصّ القرآني ترتيبًا دياكرونيًّا. هذا التقسيم لدراسة سورة آل عمران إلى جزأين منفصلين -وإنْ كانا متّصلين- سيتيح رؤية أدقّ لتطوّر الوحي القرآني على مدار حياة النبيّ والسنوات الأولى للمجتمع المسلم.

=

دقيق ووفق معايير صارمة، ولم يكن لأحد حقّ التدخل في متن النصّ، وإنما هو كتابته فقط ليحفظ على الأوراق بجانب حفظه في الصدور. (قسم الترجمات).

ثبت المراجع:

Bakhtin, Mikhail, 'The Problem of Speech Genres' in Caryl Emerson and Michael Holquist (eds), Speech Genres and Other Late Essays (Austin: University of Texas Press, 1986), pp. 60–102.

Bannister, Andrew G., An Oral-Formulaic Study of the Qur'an (Plymouth: Lexington

Books, 2014).

Bell, Richard, The Qur'an: Translated With a Critical Re-Arrangement of the Surahs

(Edinburgh: Edinburgh University Press, 1939).

——, Introduction to the Qur'ān, rev. W. Montgomery Watt (Edinburgh: Edinburgh

University Press, 1970).

Boer, Roland (ed.), Bakhtin and Genre Theory in Biblical Studies (San Antonio: Society of Biblical Literature, 2007).

Cuypers, Michel, Le Festin: Une Lecture de La Sourate Al-Mâ'ida (Paris: Lethielleux,

2007).

de Prémare, Alfred-Louis, Aux origines du Coran: questions d'hier, approaches d'aujourdhui (Paris: Téraèdre, 2004).

Ernst, Carl W., How to Read the Qur'an: A New Guide with Select Translations

(Edinburgh: Edinburgh University Press, 2011).

Flowers, Adam, ‘The Two Medinan Literary Oeuvres’, presentation at ‘Unlocking the

Medinan Qur’an’ (University of Oxford, United Kingdom, March 19–21, 2016). Graham, William A., art. ‘Orality’ in Encyclopeadia of the Qurʾān.

Hirschfeld, Hartwig, New Researches Into The Compostion and Exegesis of the Qoran

(London: Royal Asiatic Society, 1902).

Kermani, Navid, God is Beautiful: The Aesthetic Experience of the Quran, tr. Tony

Crawford (Cambridge: Polity Press, 2015).

Miller, Carolyn R., ‘Genre As Social Action’, Quarterly Journal of Speech 70:2 (1984), pp. 151–167.

Motzki, Harold, ‘Alternative Accounts of the Qurʾān’s Formation’ in Jane Dammen McAuliffe (ed.), The Cambridge Companion to the Qur’ān (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), pp. 59–75.

Neuwirth, Angelika, ‘Some Remarks on the Special Linguistic and Literary Character of the Qur’ān’ in Andrew Rippin (ed.), The Qur’an: Style and Contents (Aldershot: Ashgate, 2001), pp. 253–257.

——, ‘Structural, Linguistic and Literary Features’ in Jane Dammen Mcauliffe (ed.), The Cambridge Companion to the Qur’ān (Cambridge: Cambridge University Press, 2006), pp. 97–113.

——, Scripture, Poetry and the Making of a Community: Reading the Qur’an as a

Literary Text (New York: Oxford University Press, 2014).

Nöldeke, Theodor, and Friedrich Schwally, Geschichte des Qorāns (Hildesheim: Olms, 1970).

Robinson, Neal, Discovering the Qur'an: A Contemporary Approach to a Veiled Text

(Washington DC: Georgetown University Press, 2003).

Sadeghi, Behnam, 'The Chronology of the Qur'ān: A Stylometic Research Program',

Arabica 58 (2011), pp. 210–299.

Stefanidis, Emmanuelle, 'The Qur'an Made Linear: A Study of the Geschichte des Qorâns' Chronological Reordering', Journal of Qur'anic Studies 10:2 (2008), pp. 1–22.

Stewart, Devin, 'Wansbrough, Bultmann, and the Theory of Variant Traditions in the Qur'ān' in Angelika Neuwirth and Michael Sells (eds), Qur'ānic Studies Today (New York: Routledge, 2006), pp. 17–51.

——, 'The Mysterious Letters and Other Formal Features of the Qur'an in Light of Greek and Babylonian Oracular Texts' in Gabriel Said Reynolds (ed.), The Qur'an in Context (London: Routledge, 2011), pp. 321–346.

Weil, Gustav, Historisch-Kritische Einleitung in Den Koran (Bielefeld: Velhagen & Klasing,1844).